

الفصل الثاني

جماعات الصفوة في العالم الثالث الاتجاه التعددي الوظيفي

مقدمة :

من بين الاتجاهات النظرية التي عرضنا لها في الفصل السابق ، والتي تهتم بتكوينات الصفوة في المجتمعات الغربية ، كان الاتجاه التعددي الوظيفي هو أكثر الاتجاهات اهتماما بتحليل جماعات الصفوة في مجتمعات العالم الثالث ، ولقد ظهرت الرؤية التعددية في صورتين : الصورة الوظيفية التي أعرض لها في هذا الفصل ، والصورة الفئوية - العرقية التي ساعرض لها في الفصل القادم (١) . وإذا كنا نسمى هذا الاتجاه بأنه « تعددي وظيفي » Pluralistic Functional فإن ذلك لا يدل على ضرب من ضروب التأليف النظري بين الاتجاه التعددي pluralism وبين الاتجاه الوظيفي functionalism . ذلك أن التعددية قد استمدت أصولها الفكرية من التراث الوظيفي ، كما أنها ظهرت - كما رأينا في الفصل السابق - كاتجاه ينتمي إلى الوظيفية في صياغتها البارسونزية ، يهتم أساسا بتحليل بناء القوة والممارسة السياسية في نسق ديموقراطي حقق درجة عالية من التباين البنائي الوظيفي ، وبالتالي من التكامل والأداء الوظيفي .

وفي ضوء أهداف هذه الدراسة ، فإن هذا الفصل يود الكشف عن رؤية أنصار هذا الاتجاه للبناء الاجتماعي في مجتمعات العالم الثالث بصفة عامة .

(١) لا شك أن ذلك يدل على مدى نجاح علم الاجتماع الغربي في نشر رؤيته إلى مجتمعات أخرى غير غربية ، كما يدل - بداهة - على أن هذا الامتداد للرؤية التعددية قد جاء على حساب اتجاهات نظرية أخرى .

والبناء السياسى داخل هذه المجتمعات بصفة خاصة • وبصورة أكثر تخصيصا ، يستهدف هذا الفصل الكشف عن رؤية الاتجاه الوظيفى التعددى لجماعات الصفوة القديمة والجديدة سواء فى تكويناتها القومية أو الريفية المحلية ، وعلاقة هذه الجماعات بالبناء الطبقي أو شكل التدرج العام القائم فى المجتمع ، وبالبناء الاجتماعى بصفة عامة • وفى محاولة لاستقائ القضايا الأساسية التى يطورها أنصار هذا الاتجاه بشأن هذه الموضوعات يواجه الباحث بكم هائل من الدراسات النظرية والبحرث الامبيريقية • وقد حتم ذلك أن نحدد بعض الموضوعات الأساسية ، ثم نعرض لوجهات النظر التى تدور حول هذه الموضوعات الأساسية • وتترج هذه الموضوعات الأساسية من العام الى الخاص فتبدأ بالشكل العام للبناء الاجتماعى ، ثم تتدرج الى البناء الطبقي ، والبناء السياسى وجماعات الصفوة داخل هذا البناء • على أن يستتبع ذلك عرض للبحرث الامبيريقية التى اهتمت بدراسة جماعات الصفوة فى المجتمعات الريفية والتى اتخذت من هذا الاتجاه منطلقا نظريا (٢) ، وذلك قبل أن نقدم رؤية نقدية شاملة لهذا الاتجاه • على أن المنطق العام ، والأسس العامة التى يقوم عليها هذا الاتجاه لا يمكن أن تتضح دون تقديم صورة عامة - وسريعة - عن الجذور الفكرية للاتجاه التعددى الوظيفى • وبناء على ذلك فسوف يضم هذا الفصل الفقرات التالية :

- أولا : الجذور الفكرية للاتجاه التعددى الوظيفى •
- ثانيا : القضايا النظرية للاتجاه التعددى الوظيفى •
- ثالثا : اتجاهات البحرث الامبيريقى فى المجتمعات الريفية •
- رابعا : نقد الاتجاه التعددى الوظيفى •

أولا : الجذور الفكرية للاتجاه التعددى الوظيفى :

اتضح من الفصل السابق أن الاتجاه الرظيفى التعددى قد ظهر أساسا

(٢) سوف تضم هذه البحرث بحرثا أجريت على مجتمعات ريفية فى العالم الثالث ، مع التركيز على مجتمعات الشرق الأوسط والمجتمعات العربية ، كما أنها سوف تضم مجموعة من البحرث التى أجراها أجانب أو مصريون على المجتمعات الريفية المصرية •

لدراسة البناء الاجتماعى والسياسى فى المجتمعات الغربية الديمقراطية ، وقد جاء ذلك امتدادا للمحاولات المبكرة التى استهدفت فهم ديناميات البناء الاجتماعى لهذه المجتمعات . والمحقق أن علم الاجتماع فى أوروبا وأمريكا قد ظل حتى عهد قريب أسير نظرة اقليمية ضيقة تهتم أساسا بظروف هذه البلدان والتخطيط لها (٢) . وعندما بدأ علماء الاجتماع - من داخل هذا التيار - الاهتمام بمجتمعات العالم الثالث ، استمدوا نظرتهم لهذه المجتمعات من الأعمال الكلاسيكية لبعض الرواد الذين اهتموا بتحول المجتمع الغربى من التقليدية الى الحديثة . وطفى هؤلاء العلماء يسحبون التعميمات التى تمت صياغتها من خلال خبرة المجتمعات الغربية على مجتمعات العالم الثالث ، من خلال الاقتناع بأن هذه المجتمعات سوف تمر بنفس مراحل التطور التى قطعها المجتمع الغربى الحديث . وهكذا استمد هذا الاتجاه جذوره الفكرية من الرؤى النظرية التى اهتمت بتحول المجتمع الغربى ، سواء قامت على تشييد ثنائية بين نمطين من المجتمعات (٤) كروية اميل دوركايم ، أو على وصف عملية الانتقال من المجتمع التقليدى الى المجتمع الحديث من خلال تشييد انماط للفعل الاجتماعى والسلطة لتحليل عملية الانتقال هذه كروية

(٣) محمد الجوهري ، مقدمة فى علم اجتماع التنمية ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .

(٤) للتمييز بين نمطين من المجتمعات بناء على أشكال مختلفة من الفعل الاجتماعى أو شكل التنظيم الاجتماعى تراث طويل فى علم الاجتماع . وسنهتم فيما بعد بثنائية دوركايم عن التضامن الآلى والتضامن العضوى ، ونشير هنا الى ثنائية هنرى مين Main بين المكانة والعقد ، وتونيز Toennis بين المجتمع المحلى والمجتمع ، وكولى Cooley بين الجماعة الاولى والجماعة الثانوية ، ورفيلد Redfield بين الثقافة الشعبية والثقافة الحضرية . ويعد التراث الذى نعرض له هنا تنوعا على الموضوع الاساسى لهذه الثنائيات . انظر : محمد الجوهري ، مرجع سابق ، ١٩٧٩ ، ص ١٨٧ ، السيد الحسينى « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » ، فى السيد الحسينى وزملائه ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٤ .

ماكس فيبر ، أو على الربط بين العديد من الصياغات النظرية في صياغة عامة لوصف أشكال عديدة من المجتمعات كروية تالكوت باسونز . وسوف أحاول في هذه الفقرة أن أوضح كيف فتحت هذه الاعمال الطريق نحو الفهم التعددى - الوظيفى للبناء الاجتماعى - السياسى فى مجتمعات العالم الثالث ، وكيف مهدت الطريق نحو فهم هذا البناء فهما معياريا من خلال الخبرة الاجتماعية - السياسية للمجتمعات الغربية .

لم تكن ثنائية التضامن الآلى - التضامن العضوى بالنسبة لدوركايم مجرد مقولة وصفية وتحليلية ذات طابع تطورى فحسب ، وإنما كانت أيضا بمثابة وصف لشكلين عامين من أشكال الفعل يختلف كل منهما باختلاف التنظيم الاجتماعى الذى يسود فيه . وتعتبر كل أعمال دوركايم - بشكل أو بآخر - محاولة لتفكيك هذه الثنائية ، التى عبرت أساسا عن وصف لتحول المجتمع الأوروبى فى القرن التاسع عشر من التقاليدية الى الحداثة من وجهة النظر الدوركايمية (٥) .

فتحول المجتمع وتغييره من خلال عمليات التحديث تؤدى الى تهديد التضامن الذى هو أساس المجتمع عند دوركايم . فالحداثة تتسبب فى الاطاحة بكل الاشكال القديمة من التنظيم الاجتماعى ، وتبدأ هذه الأشكال فى الزوال واحدة تلو الأخرى . ومن ثم تصبح المشكلة الأساسية : كيف يمكن المحافظة على التضامن والحداثة فى آن واحد ؟ فى هذه الظروف يبدو التضامن العضوى -

(٥) ويختلف هذا الرأى عما ذهب إليه نيسبت من أن دوركايم لم يعد مطلقا الى هذه الثنائية فى أعماله التالية على تقسيم العمل . فقد اهتمت دراسة دوركايم عن الانتحار بالربط بين ارتفاع معدلات الانتحار ونقص التضامن ، كما اهتمت دراسة عن الدين بإبراز دور الدين فى تحقيق التضامن (الآلى) فى المجتمعات البسيطة . حول رأى نيسبت انظر :

R. Nisbet, *The Sociology of Emil Durkheim*, Heinmann, London, 1975, p. 130 ff.

في تحليل دوركايم - وكأنه ختمية تاريخية (٦) . فإذا كان تحول المجتمع يؤدي إلى تهديد أسس التضامن الآلى ، فإن على المجتمع أن يولد شكلا من أشكال التضامن قادرا على خلق نوع من التوازن بين حرية الافراد وما يفرضه المجتمع من تنظيم معيارى ، أو على خلق مجموعة من الضوابط البنائية التى تمنع النزعة الفردية - وهى احدى نتائج تحول المجتمع - من أن تؤدى بالمجتمع الى الانهيار (٧) . ويبدو مثل هذا التوازن مستحيلا دون شكل من أشكال التنظيم السياسى . ولقد ميز دوركايم بين شكلين من أشكال هذا التنظيم : (أ) الدولة وهى عنده سلطة استبدادية لا تحقق التكامل فحسب، ولكنها تلعب دورا بارزا في تحرير الافراد ، (ب) الهيئات المهنية الوسطى التى تحقق التكامل وتعمل على تخفيف حدة المركزية وتحل محل الروابط القرابية في مجتمع التضامن الآلى ، ومن أمثلة هذه الهيئات : نقابات العمل ، والاندية المهنية ، والتجمعات المهنية المختلفة (٨) . ولا غنى لمجتمع التضامن العضوى عن هذين التنظيمين ، طالما أنهما يحققان هدف التوازن بين الضوابط البنائية وبين حرية الفرد : فالدولة تمنع التجمعات المهنية من أن تصبح مجتمعات فى ذاتها ، وهذه بدورها تمنع الدولة من التحول الى أداة للاستبداد وانطغيان .

ويمثل وصف التضامن العضوى بهذا الشكل نمطا مثاليا لما يجب أن يصل اليه المجتمع اذا ما تعرض بناؤه القائم على التضامن الآلى لأى تغيرات . ويصف كتاب تقسيم العمل - الذى قدم فيه دوركايم هذه الثنائية - العملية التى من خلالها ظهرت المجتمعات الحديثة . فقد تعرض بناء المجتمع القديم

(٦) اعتبر دوركايم التغير من التضامن الآلى الى التضامن العضوى بمثابة قانون تاريخى ، يفقد بمقتضاه التضامن الآلى الأساس الذى يقوم عليه ، بحيث يحل محله التضامن العضوى شيئا فشيئا . انظر :

E. Durkheim, *The Division of Labour in Society*, The Free Press, 1964, 1st published, 1883. p. 174.

S. Lukes, *Essays in Social Theory*, The Macmillan Press (٧) LTD., London, 1977, Chapter one.

R. Nisbet, *op. cit.*, pp. 135-144. (٨)

لضرب من التباين الاجتماعى بين أجزائه المترابطة ، ترتب عليه ظهور قيم عمومية كما ترتب عليه نمو الفردية . ومعنى هذا أنه يتحول إلى مجتمع تعددى Pluralistic غير أن هذه التعددية لا يجب أن تنتهى به إلى الانحلال والتدهور ، فكل هذه التغيرات يجب أن تتم فى إطار عام من التضامن العضوى (٩) ، وأن تسعى نحو تحقيق صورته المثالية التى عرضت لها منذ قليل . ورغم أن هذه الصياغة قد ظهرت أساسا من خلال الخبرة بالمجتمعات الأوروبية ، إلا أنها استخدمت بعد ذلك فى المقارنة بين نماذج المجتمعات ، بحيث يتم التفريق بين المجتمعات المتجانسة التى لم تحقق سوى درجة بسيطة من التباين وتلك التى حققت درجة عالية منه . وهكذا تركت ثنائية دوركايم آثارها على الرؤية التعددية الوظيفية لمجتمعات العالم الثالث التى تخبر عملية تحول بين قطبى ثنائية دوركايم .

وإذا كانت الصورة المثلى للمجتمع عند دوركايم هى تلك القائمة على التضامن العضوى ، فإنها عند فيبر المجتمع الذى يحقق درجة عالية من النمو البيروقراطى والترشيد . ويجمع الباحثون الذين يتعرضون لنظريات ماكس فيبر على أنها تحوى عناصر تطويرية . فقد ذهب بارسونز - على سبيل المثال - إلى أن المنظور الذى انطلق منه فيبر سواء فى علم الاجتماع الدينى أو فى بعض العناصر الأخرى المكونة لنظريته يعد منظورا تطوريا (١٠) . فمن المحقق أن فيبر قد فهم التغير والتطور على أنه يتم من خلال تزايد التباين والتخصص ، وهى العملية التى يجب أن يترتب عليها قدر من الترشيح فى السلوك . غير أن هذا التباين لم يعالج - من منظور فيبر - بطريقة محض ثنائية كما هو الحال عند دوركايم ، وإنما ظهر التباين فى صياغة فيبر على أنه يظهر داخل مجالات متعددة من ناحية ، ودخل كل مجال على حدة من ناحية أخرى .

D. Lacapra, Emile Durkheim : Sociologist and Philosopher (٩)
 Conrnell University Press, Ithaca and London,
 1972, pp. 82-89

T. Parsons, «Introduction» to Webers Sociology of Religion, (١٠)
 Treans by E. Fischhoff, Methuem and Co. LTD., London, 1963,
 p. XXVii .

لقد نظر فيبر الى الواقع الاجتماعى - من خلال الانماط المثالية - على مستويين : (١) مستوى الفعل الاجتماعى • (٢) ومستوى الأبنية الاجتماعية التى يخلقها الافراد أو يجدون أنفسهم داخلها • وهما مستويان لا يفصلان بطبيعة الحال ، ويكشف الواقع عن ترابط أشكال مختلفة من الافعال ، وأشكال مختلفة من الأبنية • ويظهر التغير - الذى يقوم فى جوهره على التباين البنائى الذى يودى الى المجتمع الرشيد فى صورته المثالية - كنتيجة لأى عنصر من العناصر المكونة لهذه الأبنية (١١) • ويميل فيبر دائما الى اصفاء طابع المثالية على نمط معين من أنماط الفعل ، وشكل معين من أشكال التنظيم الاجتماعى • فاذا كان نمط الفعل المثالى هو الفعل الرشيد - فى مقابل الانماط الأخرى غير الرشيدة ، والتقليدية والموجهة بالقيم والمعايير ، فانه يترتب على ذلك أن يكون المجتمع الذى يحقق درجة عالية من الرشد هو المجتمع المثالى • فالتغير اذن فى المجتمع التقليدى الذى تسود فيه الاشكال التقليدية وغير الرشيدة من الفعل يجب أن يسير فى اتجاه التزايد المستمر للرشد فى التنظيمات الاجتماعية (١٢) ، أو بعبارة أخرى نحو احلال انسان التكنولوجيا technical man محل الانسان التقليدى man of culture

وإذا كان المجتمع يتطور نحو الترشيح المستمر فان نظمه السياسية تخضع لنفس التطور ، حيث تتطور من نظم تعتمد على أنماط تقليدية وكارزمية

(١١) من الأمور شعبة المؤكدة اليوم أن فيبر لم يكن يركز فقط على القيم والمعتقدات كأساس للتغير ، وأنه رفض التغير الأحادى للتاريخ • وقد أورد السيد الحسينى نصا من دراسة فيبر عن الاخلاق البروتستنتية يقول فيه « انه لايرغب فى استبدال التفسير السببى المادى الواحدى بتفسير سببى روحى للثقافة والتاريخ » انظر السيد الحسينى ، مرجع سابق ، ١٩٧٤ ، ص ٥٠ • وأكد فيبر ص ٦٠ فى دراسته عن الاخلاق البروتستنتية على ضرورة الاهتمام بالعوامل الاقتصادية • ومصادر التغير عند فيبر يمكن أن تتنوع بتنوع أشكال الفعل نفسه ، حتى فى عناصره غير الرشيدة كالكاريزما مثلا •

I. Dronberger, *The Political Thought of Max Weber, Applied* (١٢)
eton-century crofts, New York, 1971, p. 304.

السلطة الى نظم تعتمد على انماط قانونية للسلطة . وتمارس السلطة التقليدية من خلال الولاء، للكبار gerontocracy والسلطة الأبوية Patrimonialism او التسلط العسكري (١٢) . Patriachalism اما السلطة القانونية فهي سلطة رشيدة يخضع فيها الافراد لمعيار عام وليس لشخص بعينه وهي تتجسد في صورتها المثالية في التنظيم البيروقراطي . ويتضمن التحول من السلطة التقليدية الى السلطة القانونية الرشيدة تحولا نحو صيغة المجتمع التعددى في بنائه السياسى والاجتماعى . ففي المجتمع الذى تسود فيه السلطة التقليدية والسلطة الكارزمية تكون مكانة القائد هي أساس سلطته ، ولكن عندما ينمو الرشيد وتنمو البيروقراطية يظهر ضرب من التباين داخل المراتب الاجتماعية : فيظهر التباين بين الطبقة والمكانة من ناحية ، وبين نسق التدرج الاجتماعى والقوة السياسية من ناحية أخرى . ويترتب على ذلك (١٤) : (١) أن تصبح العلاقة بين الحزب من ناحية والطبقة من ناحية أخرى علاقة مفتوحة بحيث لا تسيطر طبقة معينة على حزب معين ، (٢) أن تصبح القوة منفصلة عن علاقات الطبقة والمكانة ، (٣) أن تصبح الديمقراطية أداة لتحقيق أعلى درجات الرشيد والكفاءة ، مقدمة بذلك توجيهها سياسيا أكثر كفاءة للدولة ، (٤) وأخيرا يصبح السياسيين في المجتمع الديمقراطي الحديث محترفين يعيشون من أجل الممارسة السياسية أو علبها ، وتصبح وظيفة الدولة تنظيم السيطرة عن طريق الاستخدام الشرعى للقوة الفيزيكية Physical force .

وفي ضوء هذا التحليل نجد أن التباين التعددى الذى يحدث على مستوى الفعل وعلى مستوى البناء ، والذى يؤدي الى مزيد من النمو البيروقراطي

Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization, op. cit., pp. 328—407. (١٣)

M. Weber, «Politics as Vocation» in Gerth and Mills (eds.) (١٤)

Form Max Weber : Essays in Sociology ; Routledge and Kagan Paul, London, 4th impression, 1970, p. 51, D. Beetham, op. cit., p. 96.

والترشيدي للمجتمع ، لابد أن يؤدي بدوره الى مزيد من النمو الديمقراطي بحيث يتحول بناء القوة من بناء يتركز في أيدي قلة قليلة من الافراد الى بناء تتوزع فيه القوة على جماعات متعددة في المجتمع . ومثلها مثل صياغة دوركايم، استخدمت صياغة فيبر في المقارنة بين أشكال متعددة من المجتمعات ، وفي وصف عملية التحول التي تترتب على ادخال أشكال حديثة للفعل على أشكال تقليدية ، وما يترتب على هذا التحول من نمو بيروقراطي وديمقراطي . وبهذا الشكل تركت صياغة فيبر تأثيرا بالغا على العلماء الذين اتجهوا نحو تحليل الابنية التقليدية في العالم الثالث وما يعترى هذه الابنية من تغير .

ولقد اضطلع بارسونز بربط نظرية دوركايم ونظرية فيبر - ضمن نظريات أخرى - ليقدم نظرية عامة شكلت همزة الوصل بين العلماء الكلاسيكيين وبين العلماء المحدثين الذين انشغلوا بتحليل الابنية الاجتماعية في العالم الثالث . وذلك لان نظرية بارسونز قد أفسحت المجال - على المستوى التحليلي - لرؤية معينة للتغير في المجتمعات الواقعة خارج نطاق العالم الحديث .

كان مدخل بارسونز الى تحليل هذه المجتمعات هو « متغيرات النمط » (١٥) ، التي تعد بمثابة أداة تحليلية يتم من خلالها توضيح اختلاف الافعال الملموسة عن هذه المتغيرات ، كما يتم من خلالها أيضا مقارنة أنماط مختلفة من الافعال وأنماط مختلفة من المجتمعات وفقا للشروط الذي قطعه كل منها في سلم التطور . ويرتبط التغير الاجتماعي - او التطور - عند بارسونز - بعملية التباين الوظيفي، هي العملية التي بمقتضاها « تظهر أنواع جديدة من الوحدات المكرنة للنسق . تؤدي وظيفة أعلى higher-order function

(١٥) عرض بارسونز لفكرته عن متغيرات النمط باستفاضة في المؤلفين التاليين :

- T. Parsons and E. Shils (eds.) **Toward A General Theory of Action**, Harper and Row, Publishers, New York, 1951.
- T. Parsons, **The Social System**, The Free Press, New York, 1951.

لم تكن الوحدة التي أصابها التباين أو الوحدة المتبقية منها لتستطيعا أن تؤديها دون حدوث هذا التباين » (١٦) • ولا يؤدي مثل هذا النوع من التغير إلى تغير فجائي ، وإنما إلى تغير تدريجي ينعكس في زيادة التفاعل بين مكونات النسق بحيث يصبح النسق قادرا على تحقيق « مستويات من الانجاز لم تكن متاحة له من قبل » (١٧) • ويعتبر نمو العوامل الثقافية هو العامل الحاسم في عملية التغير • فوفقا لقانون التدرج السبرنطيقى ، يحتل النسق الثقافي مكانا متفوقا عن الأنساق الأخرى ، ذلك أنه يتحكم في المعلومات التي تمكنه من أن يفرض رقابة على الأنساق الأخرى التي تمتلك قدرا كبيرا من الطاقة وقدرا أقل من المعلومات (١٨) •

وتتمكن المجتمعات من خلال تطوير مستوياتها الثقافية من زيادة قدرتها التكيفية ، والتي تعنى مزيدا من التحكم المجتمعي في البيئة ، بحيث تتمكن باستمرار من التكيف مع مواقف جديدة ووظائف جديدة • ولكي يزيد المجتمع من هذه القدرة التكيفية لابد وأن يخبر ثلاث عمليات أطلق عليها بارسونز « دائرة التطور » وهي : التباين (تباين الأبنية الفرعية) ، والتكامل (التنسيق بين الوحدات المتباينة) ، والتعميم (خلق أنماط قيمية تساعد على صياغة الوحدات المتباينة داخل نظم) (١٩) • وأهم هذه العمليات جميعا هي العملية الأخيرة لأنها ترتبط بالمستويات الثقافية ، وأن كان التباين نفسه ينتج عن عمليات ثقافية أطلق عليها بارسونز عوامل التغير الحاسمة breakthrough

— T. Parsons, «Some Consideration on the Theory of (١٦) Social Change», *Rural Sociology*, Vol. 26, 1961, p.229.

T. Parsons, «Pattern Variables Revised : A.S.R. Vol. 25 (١٧) No. 4. 1960.

(١٨) قدر بارسونز قانون التدرج السبرنطيقى في كتابه التالي :

T. Parsons, *Societies : Revolutionary and Comparative Perspectives*, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N.Y., 1960, Chap. one.

Ibid., pp. 22—23.

(١٩)

أو العموميات التطورية (٢٠) • وهذه العموميات التطورية هي : التسدرج الاجتماعي وتطور أنماط الشرعية الثقافية وهما العموميتان اللتان حولتا المجتمع من نمطه البدائي الى نمطه العتيق archaic والبيروقراطية ، والنقود ، ونظام السوق ، وظهور القانون والديموقراطية وهي العموميات التطورية التي أدت الى ظهور المجتمع الحديث •

ولكن ما علاقة هذا التطور بمتغيرات النمط ؟ الواقع أن زيادة القدرة التكيفية للنسق تعنى تحوله نحو تبني مستويات ثقافية تقوم على الانجاز، والحياد الوجداني ، والتخصص ، والعمومية ، والمصلحة الجماعية ، وتعنى في نفس الوقت تخلصه من العزو ، والوجدانية ، والانتشار ، والخصوصية ، وتفصيل المسلحة الذاتية • ووفقا لهذا التحليل ظهرت المجتمعات الحديثة في الغرب وكأنها نمط مثالي حقق قدرا كبيرا من التباين البنائي الوظيفي ، ودرجة عالية من القدرة التكيفية • وفي مقابل هذا النمط المثالي تقع مجتمعات العالم الثالث التي تقترب أو تبعد عن هذا النمط المثالي وفق ما توصلت اليه من تباين في أبنيتها وثقافتها ووفق ما ترتب على هذا التباين من زيادة القدرة التكيفية لهذه المجتمعات •

واذا حاولنا أن نطبق هذا التحليل على النسق السياسي نجد أن بارسونز يربط بين التباين البنائي الشامل وبين تغير النسق السياسي على النحو التالي : (٢١) •

T. Parsons, «Revolutionary Universals in Society», A.S.R., (٢٠) Vol. 29, No. 3. 1964, p. 330.

(٢١) عالـج بارسونز النسق السياسي باستفاضة في المصدر التالي :

T. Parsons, Politics and Social Structure, The Free Press, New York, 1969.

كما ظهرت معالجة لمفهوم بارسونز عن النسق السياسي وبناء القوة في :

G. Rocher, Talcott Parsons and The American Sociology, trans. B. and S. Menell, Nelson, 1974. First published in France 1972 ; A. Giddens «Power in the Recent writings

(أ) تحقق النظم السياسية قحرا من الاستقلال عن النظم الأخرى .
(ب) تصبح الممارسة السياسية أكثر ديموقراطية مع وجود قيادة سياسية منتخبة .

(ج) يتحول النسق السياسى الى نسق تعددى ، ومن ثم نصبح سلطة أخذ القرار متعددة وموزعة ، مع وجود تأثير للجماعات الضاغطة والوحدات المحلية المستقلة ذاتيا .

(د) يتحول توزيع القوة من التوزيع الصفرى zero-sum الى التوزيع التعددى ، بحيث لا تتركز القوة فى أيدي جماعة معينة أو صفوة معينة ، وإنما تصبح وسيلة اتصال متداولة نستخدم لتحقيق أهداف جمعية .

ويعنى ذلك أن النسق السياسى فى المجتمعات الأقل تطورا لم يحقق استقلال جوهريا عن الأنساق الأخرى وما يزال يرتبط بهذه الأنساق بروابط قائمة على الانتشار . ولهذا فإن الممارسة السياسية أقل ديموقراطية ، والقوة أقل انتشارا ، وهى تتركز فى أيدي صفوة حاكمة سراء على المستوى القومى أو المستوى المحلى . وإذا كانت هذه المجتمعات تسعى إلى اكتساب القيم القائمة على العمومية والإنجاز ، إلا أن هذه القيم الجديدة لا تزال تصارع القيم التقليدية التى ترتبط بالخصوصية والعز . والصفوة هى الحاملة لهذه القيم الجديدة ، وهى التى تسعى إلى تشكيلها وصياغتها فى نظم اجتماعية . ورغم اضطلاع الصفوة بهذه المهمة إلا أن الصياغة النظامية لهذه القيم الحديثة لا تزال تمر بمرحلة من عدم الاستقرار والصراع (٢٢) .

Talcott Parsons», *Sociology*, Vol. 2. 1968, S. Savage, «Political Power and Political Subsystems : Parsons Analysis of Politics», *ES*, Vol. 7, No. 2 1978.

وقد ظهرت ترجمة عربية لكتاب روشيه المشار إليه هنا انظر :
روشيه ، علم الاجتماع الأمريكى ، ترجمة محمد الجوهري وزميله ،
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(٢٢) T. Parsons, «The Evolution of Societies, edited, with an Introduction by Jackson Toby, Prentice Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1977, p. 228.

والسؤال المطروح الآن : إلى أى مدى انعكست هذه الرؤى النظرية على تحليل البناء السياسى والجماعات السياسية فى مجتمعات العالم الثالث ؟ كتب الجاندروبروتس *Alegandro Portes* يقول : « يدور علم الاجتماع الذى ظهر كنتيجة للنظريات الكلاسيكية حول استقطاب يظهر على أشكال نمطية - مثالية من التنظيم الاجتماعى . ولقد تم للتعبير عن التغير كتحول تدريجى كيفى من الاشكال الأقل تباينا الى الاشكال الأكثر تباينا » (٢٣) . ويعبر هذا النص عن الخط العام للاتجاه الذى نطق عليه هنا « الاتجاه التعددى الوظيفى » حيث طور أنصار هذا الاتجاه - وهم غالبا من اتباع بارسونز - الافكار المستمدة من الاعمال الكلاسيكية ، وقاموا بصياغة مجموعة من القضايا المستمدة من بيانات مأخوذة من المجتمعات النامية (وهذا هو المصطلح الذى يطلقونه على المجتمعات التى تقع خارج نطاق العالم المتقدم) ، أو من بيانات مقارنة مستمدة من العالم المتقدم والعالم النامى ، وتم ذلك من خلال الاعتقاد بأن ما يحدث فى مجتمعات العالم النامى الآن ماهو الا تحول تدريجى كيفى من الاشكال التقليدية المتجانسة الى الاشكال الحديثة المتباينة . وبدأت الوحدات الاجتماعية للمجتمع (القرى والحدن) ، والتنظيمات الاجتماعية ، والجماعات الاجتماعية (الطبقات والجماعات السياسية وجماعات الصفوة) ، ومظاهر السلوك والثقافة وكأنها تمر بعملية صراع بين القديم الزائل والحديث القادم (٢٤) . وسوف يتضح ذلك بجلاء من خلال عرضنا للقضايا الأساسية لهذا الاتجاه .

A. Portes, «On the Sociology of National Development : (٢٣) Theories and Issues» A.J.S., Vol. 82. No. 1, 1977, p. 63

(٢٤) وقد انعكس ذلك فى المصطلحات التى يطلقها أنصار هذا الاتجاه على بلدان العالم الثالث ، فهم يطلقون عليها البلدان النامية *developing* فى مقابل البلدان التى نمت بالفعل *developed* ، والبلدان التقليدية *traditional* فى مقابل البلدان الحديثة *modern* ، والأمم الجديدة *new nations* فى مقابل الأمم القديمة *old nations* والدول الحديثة *news states* فى مقابل الدول القديمة *old states* وهكذا .

ثانيا : القضايا النظرية للاتجاه التعددى الوظيفي :

أورد قبل أن أدخل في تفاصيل هذا العرض أن أؤكد على نقطتين :
الاولى : أن هذا العرض سوف لا ينصب على سرد تعميمات نظرية ، بقدر ما
يركز على آراء أنصار هذا الاتجاه حول ثلاث قضايا أساسية : (أ) الرؤية
العامة للبناء الاجتماعى فى العالم الثالث وشكل التغير الاجتماعى الذى تصوره ،
(ب) الشكل العام للتدرج الاجتماعى والجماعات التطبيقية ، (ج) البناء السياسى
وجماعات الصفوة النقطة الثانية : أن أنصار هذا الاتجاه يطبقون هذه الآراء
على تحليل المجتمعات القروية وعلى تحليل المجتمعات الحية على حد
سواء .

(أ) البناء الاجتماعى وتغيره :

يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أن الأبنية الاجتماعية الثقافية لبلدان
النامية أبنية تقليدية إذا ما قارناها بتلك الخاصة ببلدان العالم الحديث .
فمن خصائص هذه المجتمعات أنها تتصف :

١ - ببساطة التكنولوجيا والصناعة وسيطرة الإنتاج الزراعى المعيشى ،
وعدم اقتصادى متقلب unsustained ، وبانتشار علاقات الرجة لتوجه
وذرة الروابط الأسرية وأهمية الملكية الزراعية والمكانة الموروثة فى تحقيق
الهيبة الاجتماعية والنفوذ السياسى (٢٥) .

٢ - بالانتقال الى الانجاز وسيادة انخصوصية الأمر الذى يؤدي الى

N.J. Smelser, «Toward a Theory of Modernization» in A. (٢٥)
and E. Etzioni (eds.) **Social Change**, Basic Books, New
York, London, 1964, p. 259, M.F. Millikan and R. Black-
mer (eds), **The Emerging Nations, Their Growth and the**
U.S. Policy, Asia Publishing House, London, 1962, pp.
4-6 ; and M.I.T. Study Group, «The Transitional Pro-
gress» in C.E. Welch, Jr., **Political Modernization**, 2nd
ed., Wodsworth Publishing Company, Inc., Belmont, Cali-
fornia, 1972. pp. 20 ff.

توزيع الأدوار توزيعاً قائماً على الانتشار بدلاً من التخصص ، وكذلك سيطرة المصالح الذاتية (٢٦) . وثقافة هذه المجتمعات تتباين حول ما أطلق عليه جيلفورد جيرتز G. Geertz « المشاعر البدائية » أو المشاعر الفطرية ، Premordial sentiments في مقابل « المشاعر المدنية » ، civil sentiments التي تنتشر في المجتمعات الحديثة (٢٧) .

وتتغير أبنية وثقافة هذه المجتمعات التقليدية من خلال التباين ، الذي بدأ في الظهور بعد الاحتكاك مباشرة بالغرب . ولو لم يكن هذا الاحتكاك قد حدث ، لم يكن ليحدث أى ضرب من ضروب التغير داخل هذه المجتمعات . فلقد كان للمجتمعات المتقدمة تأثير بالغ على المجتمعات التقليدية ، حيث وضعت تلك الأخيرة في حالة من الحركة بعد السكون والركود الذي كانت تعيش فيه ، وحققت في دوائها ديناميات التحديث . فهذا الاتصال هو الذي خلق من الظروف ما يمكن أبنية وثقافات هذه المجتمعات من أن تخبر عملية التباين التي هي أساس التغير . والمثال الطرازي على هذا التباين هو استبعاد الأسرة عن أداء بعض وظائفها السابقة (كالنشاط الاقتصادي والتعليم . ومن الأمثلة الأخرى فصل الممارسة السياسية عن الصراعات القبلية والانتماءات القرابية ، وتباين الأدوار المهنية حيث يتم فصلها عن سياقاتها التقليدية ووضعها داخل أبنية متخصصة الأمر الذي ترتب عليه تعدد الجماعات المهنية (البيروقراطيون ، والموظفون ، والعمال ، والفلاحون) بدلاً من تجانسها في أشكالها التقليدية (٢٨) .

ويصاحب هذا التباين البنائي تباين على المستوى الثقافي . ويذهب

B. Hoskitz, op. cit., pp. 30-41. (٢٦)

G. Geertz, «The Integrative Revolution : Primordial Sentiments and Civil Politics in the New States», in G. Geertz (ed.) Old Societies and New States, The Free Press, N.Y., 1967, pp. 112-113. (٢٧)

L. Fallers, «Equality, Modernity and Democracy in The New States», in G. Geertz (ed.) op. cit., pp. 181-193. (٢٨)

هو سيلتز في هذا الصدد الى أن التغير تجاه العقلية الحديثة يتطلب سيادة القيم القائمة على الانجاز ، والعمومية ، والتخصص ، والحياد الوجداني ، والمصالح الجماعية (٢٩) . وبهذا تتحول الثقافة المتجانسة التقليدية الى ثقافة متنوعة . ومصدر هذا التنوع هو نشر ثقافة المجتمعات الحديثة الى هذه المجتمعات . ولقد أطلق لوسيان باي Lucian Bye على هذه العملية وعملية نشر الثقافة العالمية ، diffusion of World Culture تلك الثقافة التي تقوم على التكنولوجيا المتطورة وروح العلم ، والنظرة الرشيدة الى العالم، والاتجاه العلماني في العلاقات الاجتماعية ، والشعور بالعدالة في الامور العامة، وفوق كل ذلك ، وعلى النطاق السياسي ، قبول الاعتقاد بأن الوحدة الاولى للسياسة هي الدولة - الامة (٣٠) .

غير أن هذا التباين في البناء والثقافة لم يصل الى أقصى درجاته .

Hosititz, op. cit, pp 42—49.

(٢٩)

Quoted in C.E. Welch, jr., «The Comparative Study of (٣٠) Politics» in C.E. Welch, op. cit., p. 4.

ويؤكد كتاب آخرون نفس القيم ولكن بطرق أخرى / : فدانيال ليرنر يذهب على سبيل المثال الى أن « الانسان الحديث » يجب أن يكتسب القدرة على التقمص الوجداني ، التي تزوده بقدر من المرونة الداخلية تمكنه من التوحد مع موضوعات مختلفة ومواقف مختلفة في أثناء عملية التحول ، وان يشارك في هذه العملية . ويعدد اليكس انكلس تسعة اتجاهات أساسية تميز الانسان الحديث هي : الاستعداد للتجديد ، والقدرة على تكوين الآراء ، واكتساب التوجه الديموقراطي ، واكتساب العادات الفردية المرتبطة بالتخطيط ، والاعتقاد في الكفاءة البشرية ، وان العالم قابل للعد والقياس ، والايمان بالكرامة البشرية والشخصية، والايمان بالعلم والتكنولوجيا ، وعدالة التوزيع . انظر :

D. Lerner, *The Passing of Traditional Society*, The Free Press of Glencoe, London, 1964. p. 5., and A. Inkles, «The Modernization of Man» in W. Weiner (ed.), *Modernization : The Dynamics of Growth*, Basic of Growth, Basic Books, Ins., N. Y., London, 1966. pp. 138—50.
pp. 138—50.

مقلا تزال المجتمعات التقليدية في حالة تحول . وتنعكس ظروف حالة التحول هذه على البناء الاجتماعي فيبدو غير مستقر الى حد بعيد . فغالبا ما يوصف التحول أو التغير الذي تمر به المجتمعات التقليدية بأنه تغير غير متسق uneven . ويمكن أساس عدم الاتساق هذا في عملية التباين ذاتها . فالعناصر البنائية والثقافية المتباينة تبدو غير متسقة ، كما أن التناقض الذي يحدث بين العناصر التقليدية الزائلة والعناصر الحديثة القادمة يعمق من حدة عدم الاتساق هذا . ومن مظاهر عدم الاتساق زيادة معدلات التغير الاقتصادي عن معدلات التغير الثقافي ، وظهور جماعات تتبنى القيم الحديثة في مقابل تمسك جماعات أخرى بالقيم التقليدية ، وعدم ارتباط التباين بظهور بعض الروابط التكاملية أو الميكانيزمات التكاملية القومية .

ولهذا نجد نيل سملسر يؤكد - على سبيل المثال - أن التباين لاتصاحبه في الغالب بعض القوى التكاملية التي تجمع العناصر المتباينة جنبا الى جنب، وتنسق بينها وتكسيبها قدرا من التضامن . ومن أمثلة هذه القوى التكاملية التي لم تظهر بعد . نقابات العمال ، والاحزاب السياسية ، والهيئات التطوعية ، والجماعات الضاغطة . وفي حالة ظهور بعض هذه القوى ، فإنها غالبا ما تفشل - بسبب طبيعتها القبلية - في مواجهة المشكلات الناجمة عن عملية التغير . ويترتب على ذلك قدر كبير من الاضطراب الاجتماعي ، ومن مظاهر عدم الاستمرار التي تتجسد في القلق والعداوة والخيال الجامح الذي يميز العديد من الحركات الاجتماعية (٣١) . ولا شك أن المجتمعات تختلف فيما بينها في درجة تطويرها لنظم ، وجماعات ، وميكانيزمات تساهم في وضع مبادئ للتكامل الاجتماعي ، وبناء على ذلك فإنها تختلف في درجة القابلية للتكيف الداخلي مع ظروف التغير ، وفي درجة تشكيل هذا التغير داخل نظم اجتماعية . وكلما كان المجتمع أكثر قدرة على التكيف الداخلي والمرونة كان أكثر قدرة على التغلب على مشكلات التحول (٣٢) .

N. Smelser, op. cit., pp. 267—273.

(٣١)

S.N. Eisenstait, «Transformation of Social, political and Cultural Orders in Modernization» A.S.R. Vol. 30. No. 5,

(٣٢)

1965, pp. 659—673.

(ب) التدرج الاجتماعى والجماعات الطبقة :

كتب هوسلتز يقول : « يقوم البناء العام للطبقات (فى المجتمعات النامية) بصورة مطلقة على ثنائية بين جماعتين رئيسيتين : الصفوة والجماعير . وتتضمن عضوية الصفوة عادة تملكا للقوة السياسية ، ودرجة عالية نسبيا من التعليم ، والسيطرة بشكل مباشر أو غير مباشر على أجزاء كبيرة من ثروة المجتمع ، أما عضوية الطبقة الدنيا ، والتي تضم الجماعير العريضة من السكان ، فانها تفتقر الى القوة السياسية ، ويسود فيها الفقر ، والدخل المنخفض ، ولا يوجد لديها عادة أى قدر من التعليم وإن وجد فهو ضئيل جدا . أما الطبقة الوسطى فهي نادرة الوجود ، وإن وجدت فهي صغيرة وليس لها من أهمية تذكر فى هذه المجتمعات » (٣٢) .

ويشير هذا النص الى أن التدرج الاجتماعى القائم على وجود الطبقات لم يظهر بعد فى المجتمعات التى تمر بعملية التحول من البنى التقليدية الى البنى الحديثة . فلا تزال الجماعير متجانسة الى حد كبير ، وهى تعيش فى مستوى اقتصادى اجتماعى متجانس . ويعيش فوق هذه الجماعير الغنيرة طبقة عليا أو صفوة تتناقض فى أسلوب حياتها وفى ما تمتلكه من تعليم ودخل مع الطبقة الدنيا أو الجماعير . وفى مثل هذه الظروف يندر وجود طبقة وسطى . فلم تقطع هذه المجتمعات فى طريق التحول الاقتصادى - الاجتماعى ذلك الشوط الذى يمهّد الطريق لظهور طبقة وسطى تسمد الفجوة بين الطبقتين ، وتخلق نمطا للتدرج الاجتماعى يقوم على علاقات الطبقة وليس على علاقات الصفوة . ويبدو أن تحول هذه المجتمعات وتباين أبنيتها مرتين بظهور الطبقة الوسطى .

ويصف لويد فالرس Lloyd Fails نسق التدرج الاجتماعى فى الدول الجديدة (أى دول العالم الثالث) على أنه هرم دقيق القمة ذو قاعدة

B. Hoselitz, «Social Stratification and Economic Development», I.S.S.J., Vol. 16, No. 2, 1964, p. 240, (٣٣)

عريضة اذا قارناه بنظيره في المجتمعات الغربية (٢٤) . ويساير هذا الوصف وصف هوسيلتز الذى اقتبسناه منذ قليل . فالقمة طبقة صغيرة الحجم أو صفوة ، والقاعدة جماهير غفيرة من الناس ، بدون وجود فئات وسطى . ويقدم فالرس تفسيراً لعدم وجود مثل هذه الفئات الوسطى . وهو يذهب الى القول بأن الغالبية العظمى من سكان المجتمعات النامية لا ينفردون في أبنية متباينة حديثة ، تلك الأبنية التى لم تحقق هى نفسها سوى درجة منخفضة من التباين . ويؤدى هذا الى ظهور نوع من الاستقطاب فى التدرج الاجتماعى حيث تتربع الصفوة على القمة المدببة للهرم الطبقي ، وتوجد الجماهير فى قاعدته (٢٥) . غير أن بعض العلماء يميل الى تقديم تفسير آخر لعدم وجود الطبقة الوسطى . فنجد أيزنشتات - على سبيل المثال - يربط بين عدم وجود هذه الطبقة وبين سلوك الصفوة وسياساتها . فالصفوة تحاول التقليل بقدر الامكان من تطورات مستقلة للطبقة الوسطى والطبقة العاملة ، بل انها تخضع سلوك هذه الجماعات الى موجبات سياسية (٢٦) .

ومع ذلك فان بعض الباحثين ممن ينتمون الى هذا الاتجاه يذهبون الى القول بأن هذه المجتمعات قد حققت بالفعل قدراً من التباين أدى الى ظهور نسق للتدرج الاجتماعى الطبقي ، تحتل فيه الطبقة الوسطى مكانة بارزة . ومن هؤلاء هالبرن Halpern الذى اهتم اهتماماً خاصاً بمجتمعات الشرق الاوسط (٢٧) . ذهب هالبرن الى القول بأن مجتمعات الشرق الاوسط قد شهدت نمو طبقة وسطى جديدة من السياسيين العسكريين والمدنيين ، والمنظمين ، والمديرين والخبراء . وتختلف هذه الطبقة عن نظيرها فى المجتمعات الصناعية . ويرجع ذلك الى طبيعة التطور فى كلا الحالىين . فمجتمعات الشرق الاوسط تحركت مباشرة الى العصر الادارى دون المرور

Fallers, op. cit., p. 186.

(٢٤)

Ibid., p. 150.

(٢٥)

Eisenstadt, op. cit., p. 319.

(٢٦)

M. Halpern The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa, Princeton University Press, New Jersay, 1963.

(٢٧)

بعض الآلة . وقد ترتب على ذلك أن حققت طبقة الموظفين لنفسها قدرا من القوة ، قبل أن تحقق المكانة والأمن والرخاء الاقتصادى الذى تستند عليه هذه القوة . وقد ترتب على ذلك أن استخدمت هذه الطبقة قوتها « للمحافظة على النظام والملكية ولكن لخلق النظام والملكية - وهو عمل ثورى يتم تحقيقه حتى الآن دون التزام نهائى بأى نسق معين من النظم » (٢٨) .

وتقف هذه الطبقة الوسطى بين طبقتين : الطبقة العليا وهى - عند هالبرن - الصفوة التقليدية التى يتقلص دورها باستمرار ، والتى تتكون من العائلات الملكية القديمة ، وكبار ملاك الأرض ، والطبقة العليا الحضرية (البرجوازية التقليدية) . وتفقد هذه الطبقة العليا - الصفوة - قوتها باستمرار ، وذلك بالرغم من تحول بعض أعضائها الى موقف الطبقة الوسطى . أما أعضاء الطبقة الدنيا فهم العمال ، والفلاحون ، وهما فئتان جمعهما هالبرن فى طبقة واحدة أطلق عليها الطبقة الدنيا أو الجماهير المغلوبة على امرها Powerless masses (٢٩) .

غير أن تحليل هالبرن يكشف عن أن هذه الطبقة الوسطى تخلق بدورها استقطابا من نوع جديد بينها وبين الجماهير بحيث يظهر التدرج الاجتماعى فى شكل مستقطب طبقتين اثنتين : هذه الطبقة الوسطى الجديدة من ناحية ، والطبقة الدنيا من ناحية أخرى . فالطبقة العليا - فى صياغة هالبرن - فى طريقها الى الزوال ، ويتحول الكثير من أعضائها الى موقف الطبقة الوسطى باستمرار . وفى نفس الوقت تعمل الطبقة الوسطى الجديدة كصفوة جديدة تحل محل الصفوة التقليدية المتداعية . وقد يرتب على ذلك أن تستحوذ هذه الطبقة - الصفوة - الجديدة على مقدرات الأمور وتمنع الطبقات الأخرى من الصعود بنفس الكيفية . وقد أكد هالبرن هذا عندما أكد على حقيقتين :

الأولى : أن ظروف التحول قد جعلت الممارسة السياسية فى مجتمعات الشرق الأوسط لعبة تمارس داخل الطبقة الوسطى فقط (٤٠) -

Ibid., p. 52.

(٣٨)

Ibid., pp. 41—50.

(٣٩)

Ibid., p. 74.

(٤٠)

الثانية : أن هذه الطبقة الوسطى الجديدة لم تنجح في أن تسد الفجوة التقليدية التي تفصل بين الريف والمدينة (٤١) .

وبدل ذلك على أن ظهور الطبقة الوسطى لا يحول التدرج الاجتماعي في البلدان النامية الى تدرج مستقر نسبيا ، كما أنه لا يقضى نهائيا على خاصية الاستقطاب الكامنة فيه . وهذا شيء طبيعي طالما أن هذه المجتمعات لا تزال تعيش مرحلة التحول والتباين التعددي ، وطالما أنها لم تصل الى الصورة المثالية التي يجب أن تصل لها ، وأعني صورة المجتمع الغربي الديمقراطي .

(ج) البناء السياسي وجماعات الصفوة :

طالما أن المجتمعات التقليدية لا تزال في مرحلة التحول ، فإن الانساق السياسية والممارسة السياسية في هذه المجتمعات لا يمكن أن توصف من خلال نفس المقولات التي توصف بها هذه الانساق وتلك الممارسة في المجتمعات الغربية . فهي ليست انساقا ديمقراطية والمجتمعات برمتها ليست مجتمعات ذات نظم متعددة الدعائم Polyarchies تعرف قدرا هائلا من الكفاءة في عملية إصدار القرار السياسي أو الممارسة السياسية . ولكن توصف هذه المجتمعات - من حيث درجة تطور انساقها السياسية - بأنها مجتمعات ذات نظم أحادية hegemonies وذلك تمييزا لها عن المجتمعات ذات النظم المتعددة الدعائم والتي توجد في الغرب (٤٢) . ويقوم هذا التمييز على درجة شمول أو عمومية التنظيمات السياسية Political inclusiveness ودرجة التنافس السياسي Political competitiveness

Ibid., p. 95.

(٤١)

R. Dahl, *Polyarchy : Participation and Opposition*, Yale University Press, New Haven, 1971, *Regims and Opposition*, Yale University Press, New Haven, 1973 ; The introduction of G. Almond (ed.) *Comparative Politics Today*, Little Broum and Company, Boston Toronto, 1974. pp. 26-28/.

(٤٢)

ففى للنظم المتقدمة ، متعددة الدعائم ، تسود أعلى درجة من الشمول السياسى وأعلى درجة من التنافس السياسى ، أما المجتمعات الأحادية فانها لا تعرف الا أدنى درجة من هاتين الخاصيتين . وبناء على ذلك فان المجتمعات ذات النظم متعددة الدعائم تعرف أقصى درجة من الديمقراطية ، بينما تسود التسلطية بدرجات متفاوتة فى المجتمعات التقليدية ، ويترتب على ذلك أن تتركز القوة - فى تلك الأخيرة - فى أيدي مجموعة صغيرة من الافراد ولا تتوزع على جماعات متعددة كما هو الحال فى الأنساق الديمقراطية (٤٢) .

ويعكس هذا مستوى التطور السياسى غير المتسق الذى تمر به المجتمعات التقليدية ، ويقاس التطور السياسى فى نظر أصحاب هذا الاتجاه فى ضوء بعض المتغيرات منها : زيادة عدد المواطنين المشاركين فى الممارسة السياسية ، كفاءة النسق السياسى ، تباين النسق السياسى ، تخصص النسق السياسى وتكامل وحداته المكونة (٤٤) . وتمثل هذه المتغيرات فى مجموعها نموجا مثاليا للتطور السياسى لا تقترب منه الا الدول الديمقراطية المتقدمة . أما الدول - الأمم الحديثة التى تسلمت السلطة من الحكومات المركزية ، فلا تستطيع أن تصل الى هذا النموذج المثالى بسهولة . وذلك بسبب الطبيعة غير المستقرة للتحوّل الذى تمر به من ناحية ، وبسبب طبيعة الافراد الذين تسلموا السلطة فى هذه البلدان من ناحية أخرى . فقد كانت

(٤٣) يحاول علماء السياسة ممن يهتمون بالدراسة المقارنة ان يشيدوا نماذج مقارنة مؤسسة على التفرقة بين المجتمعات التى ننوزع فيها القوة توزيعا متعددا وتلك التى تعرف التوزيع الأحادى ، موضحين الدرجات المختلفة للتعددية والأحادية بين هذين القطبين . انظر حول هذه النماذج :

G. Almond and J. Coleman, **The Politics of the Developing Areas**, Princeton University Press, New Jersey, 1960.

L. Paye, «Political Culture and Political Development» in (٤٤)
L. Paye and . Verba (eds.) **Political Culture and Political Development**, Princeton University Press, N.J., 1965 p. 13.

النتيجة الحتمية التي ترتبت على كلا الطرفين هي ظهور صفوة حاكمة على المستوى القومي ولها امتداداتها الإقليمية المحلية .

ففي ظروف التحول غير المستقر يمر المجتمع بحالة من عدم الاتساق وعدم التجانس تخلق داخله مشكلة نظام ، يتم حلها من خلال فرض التكامل فرضا من خلال جماعات انصفوة . وقد كتب ايزنشتات في هذا الصدد يقول : « تكمن المشكلة الرئيسية في تطور النظم السياسية في البلدان الجديدة في ضرورة تطوير تدعيم اجتماعي للمحافظة على الجوانب المختلفة والمتناقضة أحيانا - للأطر النظامية الحديثة . » وينتج عما ينسم به التغير من عدم استقرار تطور غير متسق لأنماط مختلفة من الدافعية والتوجه ترتبط بجوانب مختلفة من الاطار النظامي . . ومع تحقيق الاستقلال . . بدت كل اشكال التطور وكأنها تنبع من الانشطة التي تقوم بها صفوة سياسية ، حاولت ايضا ان تؤكد رقابتها على اشكال التطور هذه ، وتنتظر الصفوة الى نمو مراكز مستقلة للسلطة والى استقرار جماعات سياسية جديدة ومصالح جديدة على أنه تدخل في استقرار الاطار النظامي الاساسي الجديد وفي الولاء العام للرموز المشتركة الجديدة (٤٥) . ويشير هذا النص الى أن الصفوة تعمل بمثابة اداة للتكامل - من وجهة نظرها على الاقل - في المجتمعات النامية . ولقد ظهرت فكرة دور الصفوة في تحقيق التكامل ، ظهرت بجلاء عند ليونورد بايندر Leonard Binder حيث استخلص النتائج التالية في حديثه عن التكامل القومي أثناء فترة التحول (٤٦) :

١ - يتطلب التكامل القومي خلق اجماع ايديولوجي - ثقافي عام

٢ - وتضطلع الانساق السياسية - في أثناء خلق مثل هذا الاجماع - بمسئولية تفوق مسئولية غيرها من الانساق .

Eisenstadt, «Political Development», in A and E. Etzioni (٤٥). (eds.) op. cit., pp. 320-321.

L. Binder, «National Integration and Political Development» (٤٦). A.P.S.R. Vol. 58. 58, No. 3, 1964, p. 630:

٣ - ويعتمد نجاح هذه العملية على خلق شريحة اجتماعية تكون قادرة - بحكم تنشئتها وتعليمها - على طرح صيغة تآلف سلوكي وأيديولوجي بين القيم التقليدية والقيم الحديثة ، بل إنها يجب أن تكون راجبة في طرح هذه الصياغة .

وفي ضوء هذا التحليل فإن المهمة الأساسية المخططة بالصفوة هي بث قيم الحداثة في المجتمع ، والتغلب على مشكلات التكامل التي تفرضها هذه المهمة . إن عليها أن تخلق أو تقوم « بثورة تكاملية » (٤٧) Integrative revolution تلم شمل المجتمع وتجمع شتاته . وأداتها في ذلك هي خلق نوع من « الديانة السياسية » (٤٨) أو ما يميل ادوارد شيلز الى تسميته « بالقيم المركزية » (٤٩) . Central values وهي مجموعة القيم الاجتماعية والسياسية التي تتبناها الصفوة وتحاول فرضها من أعلى ، أو نشرها من المركز الى التوابع الإقليمية .

وإذا كانت ظروف التحول هي التي تنتج وجود الصفوة ، فإن الخصائص التي تسم أعضاء الصفوة واتجاهاتها ، وتصورات أعضائها عن أنفسهم ، كل هذه الأشياء تدعم وجود الصفوة . وقد أشرت من قبل الى مذهب اليه ايزنشتات من أن الصفوة تحاول جاهدة الحيلولة بين الفئات الوسطى الناشئة وبين الجماعات ذات المصالح التي تهدد وجودها وبين تحقيق وضع سياسي مستقر . ولقد أشار ادوارد شيلز الى أن الجماعات الحاكمة في بلدان العالم الثالث ، لا تنظر الى نفسها على أنها متساوية مع بقية أفراد

(٤٧) قدم هذا المصطلح جيلفورد جيرتز في مقاله السابق الإشارة اليه واستخدمه لينورد بايندر في المقال التالي .

L. Binder, «Egypt : The Integrative Revolution», in L. Pye and S. Verba, op. cit.

D. Apter, «Political Religion in the New States» in G. (٤٨) Geertz, op. cit. pp. 59 - 104.

E. Shils, Center and Periphery : Essays in Macro-Socio- (٤٩) logy, The University of Chicago Press, Chicago, 1975.

الاجتمع • على العكس من ذلك تماما ، انهم يتصورون أنفسهم على أنهم أكثر أهمية • فقد تكونت جماعات الصفوة الحاكمة من خلال ظروف خاصة ترتبط بنضال هذه الصفوة ضد الاحتلال أو التفارض معه أو كليهما معا • وحدث أن طورت كثير من صفوات بلدان العالم الثالث بعض الافكار القومية في أثناء هذا النضال ، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبح افراد هذه الصفوات يجسدون - أو هكذا يعتقدون - الهوية القومية والمشاعر القومية لبلدهم ، واصبحوا يتصورون أنفسهم وكأنهم أمناء على شعبهم وعلى مصالحه (٥٠) •

والحق أن أنصار هذا الاتجاه ينظرون الى معظم الصفوات - خاصة الصفوة المتعلمة - على أنها أكثر الجماعات في المجتمع حملا لصفات الغرب أو لسمات التحديث ، بل أصبح اكتساب هذه السمات ظرفا ضروريا لعضوية الصفوة • ولقد أوضح لوسيان باي هذه النقطة بجلاء عندما تحدث عن الانقسام بين الثقافة السياسية الخاصة بالصفوة ، وتلك الخاصة بالجماهير من ناحية ، والانقسام بين الافراد الذين خبروا عملية تنقف والافراد الذين مازالوا يحملون الثقافة التقليدية من ناحية أخرى • وأكد لوسيان باي أن هذين النمطين من الانقسام يلتقيان في بعض المجتمعات كالهند ومصر ، حيث تتكون ثقافة الصفوة الى حد كبير من توجيهات ذات نطاق عالمي cosmopolitan في حين تضم ثقافة الجماهير الافراد ذوي التوجيهات التقليدية (٥١) •

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٤٢٩ • ولقد حارل شيلز هنا أن يقدم تفسيراً لهذه الظاهرة جنبا الى جنب مع ظاهرة انخفاض معدل الكفاءة في البلدان النامية • ذهب شيلز الى أن الأمة « تصبح في هذه الحالة موضوعا كارزيميا ، وهو يشع هذه الكاريزما على الافراد الذين يتوحدون معه • والافراد الذين يدخلون في دائرة الصفوة هم أكثر الافراد توحدا مع هذا الموضوع ، ومن ثم فانهم يشعرون بانهم يمتلكون كاريزما قومية أكثر من غيرهم • ويعتقد شيلز أن التطور في هذه البلدان مرهون بانتقال هذه الكاريزما من النطاق السياسي الى النطاق الاقتصادي وكل المجالات الأخرى • انظر المرجع السابق ، ص ٣٠٨ - ٤١٥ •

L. Paye, op. cit., p. 17.

(٥١)

ومع ذلك ، فإن التعليم يبدو وكأنه يقف خلف هذه الواجهة العالمية لثقافة الصفوة . فالتعليم يعد عاملا هاما في تكوين هذه الصفوة التي تمثل الثقافة الحديثة ، والتي تقف بما تتسلح به من ثقافة وعلم في مقابل الصفوة التقليدية التي تدافع عن المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية . فقد أوضحت دراسة تنطلق من هذا الاتجاه ، أجريت على عينة من ١٤٥٣ مبحوثا من أربعة مجتمعات افريقية ممن يشكلون الصفوة (الجديدة) في هذه المجتمعات ، أوضحت أنه لا يوجد بين هذه العينة فرد واحد لم يحصل على تعليم رسمي . بل إن نسبة عالية من هذه العينة (حوالي ٧٧٪) تشغل وظائف رسمية : كالمديرين وكبار الموظفين والقضاة ، في حين وصلت نسبة الذين يعملون كموظفين حوالي ٢٪ فقط (٥٢) . وتكشف هذه الدراسة بجلاء عن أهمية التعليم في تكوين الصفوة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن الأساس الذي تم بناء عليه اختيار عينة البحث يركز على الدخول المرتفع وعلى الوظائف العليا كأساس لعضوية الصفوة .

غير أن هذه الصفوة ليست هي الصفوة الوحيدة الموجودة في المجتمعات النامية ، إنما الصفوة الجديدة التي تمثل الثقافة الحديثة . وطالما أن المجتمع ما يزال يمر بعملية التحول ، فإنه من الطبيعي أن توجد الصفوة التي تمثل الثقافة الحديثة ، وتلك التي تمثل الثقافة التقليدية ، مع وجود قدر من التدخل بطبيعة الحال ، وأن تتشكل الممارسة السياسية من خلال المواقف المختلفة لهذه الجماعات . فقد كتبت سوزان كيلر حول تكوين الصفوة في البلدان النامية تقول : « يسعى القادة التقليديون (في هذه البلدان) للمحافظة على ما يحاول الشباب التقدمي المدرب تدريباً غريباً أن ينتزعه من أيديهم » (٥٢) . كما ذهب إدوارد شيلز إلى أن الزعماء التقليديين من البلدان النامية يتخوفون من أن يمزقهم الجيل الناصع أربا إذا ما أعطوهم واجهة

Gordon M. Wilson, «The African Elite» in S. Diamond and (٥٢)
F.G. Durke (eds.) *The Transition of the East Africa*,
Studies in Political Anthropology, Basic Books, Inc., New
York, London, 1966, pp. 435-439.

S. Keller, *op. cit.*, p. 121.

(٥٣)

سياسية يعبرون بها عن آرائهم (٥٤) . ولكن ما هي الأسباب الكامنة خلفه هذا التوتر بين جماعات الصفوة التقليدية والجديدة . المحقق أن هذه الأسباب ترتبط بالثنائية الكامنة في البناء الاجتماعي ذاته ، وظروف التحول غير المتسق الذي يمر به . وينعكس ذلك في نقطتين يتم التركيز عليهما عند دراسة الصفوة القديمة والجديدة من هذا المنظور :

١ - المقارنة بين وضع متقلص للصفوة التقليدية ووضع نام للصفوة الجديدة . وإذا كان التفاعل بين « التقليد » و « التحديث » في عناصر البناء الاجتماعي يؤدي إلى التقلص المستمر للعناصر التقليدية والنمو المستمر للعناصر الحديثة ، فإن الصفتين القديمة والجديدة تعكسان نفس التفاعل وتجسدانه . وهناك جانبان لهذه المسألة : (٥٥) .

الأول : أن اختفاء الصفوة التقليدية يبدو وكأنه مسئلة أساسية لعملية التحديث ، من حيث أن الأفراد الذين يأخذون على عاتقهم عمليات التحديث ينتمون بالضرورة إلى الصفوة الجديدة .

الثاني : أن الصفوة الجديدة ذاتها تفهم « الحداثة » على أنها تتضمن إقصاء الأفراد ذوي السلطة التقليدية أصحاب المصالح في المجتمع التقليدي من أمثال زعماء القبائل والزعماء الدينيين ، فضلا عن إحلال نظم جديدة جمهورية وديمقراطية محل النظم الملكية والارستقراطية القديمة .

٢ - يرتبط تعريف الصفوة الجديدة بالدور التحديثي الذي يجب أن تقوم به هذه الصفوة ، حيث يرتبط هذا التعريف باكتساب صفات الثقافة الغربية وأهمها على الإطلاق في التعليم على النمط الغربي . ولقد ظهر ذلك من خلال بعض الإشارات في العرض السابق . وتؤكد أيضا من خلال مجموعة

E. Shils, op. cit., p. 466.

(٥٤)

(٥٥) اتضح ذلك في أعمال ماكس ميليكان ، وهالبرن ، وادوارد شيلز وليرنر السابق الإشارة إليها .

من الدراسات عن الصفوة الجديدة في مجتمعات افريقيا ، حيث تم تعريف الصفوة الجديدة بأنها « أولئك الافراد الذين تلقوا تعليما غربيا ووصلوا الى درجة من الثراء تفوق نسبيا المستوى الشائع لدى الجماهير » (٥٦) . أما الصفوة انتقالية فانها تختلف كثيرا عن ذلك فهي تضم الزعماء التقليديين الذين يتمتعون بمكانة الصفوة في دائرة منطقتهم العرقية ، او مدينتهم او قريتهم وعلى أسس تختلف عن الأسس التي تقوم عليها مكانة الصفوة الجديدة (٥٧) . وفي دراسة مقارنة للصفوة الجديدة في افريقيا وآسيا تم تعريف أعضاء الصفوة الجديدة بأنهم « الافراد الذين تعلموا وفقا للنمط الغربي ، وفي أحوال كثيرة في مدارس وجامعات في أوروبا الغربية ، وهم الافراد الذين شكلوا النخبة الرائدة لتحقيق الاستقلال » (٥٨) . وأخيرا ففي دراسة عن الصفوة الجديدة في نيجيريا ، تم تعريف الصفوة الجديدة بأنها نتاج عمليات اكتساب صفات الغرب ، والتحضر والتنمية السياسية ، انها جماعة من الافراد العصاميين الذين تلقوا تعليما غربيا والذين يعملون في وظائف غير تقليدية تكسبهم قوة وهمية داخل مجتمعاتهم المحلية » (٥٩) . والواضح هنا أن الانجاز من خلال التعليم هو الأساس الذي تقوم عليه الصفوة الجديدة . حقيقة أن جماعة الصفوة هذه تحقق قفزا من الثراء ، غير أن هذا الثراء لا يأتى الا من خلال التعليم ذاته . وهكذا عكست رؤية أنصار هذا الاتجاه للبناء الاجتماعي بعمامة ، وللتدرج

P.C. Lloyd, «Introduction» in Lloyd (ed.) *The New Elite of Tropical Africa*, Oxford University Press, London, 1966, Reprinted in 1970, p. 4. (٥٦)

Ibid., p. 114. (٥٧)

T. Kerstiens, *The New Elite in Asia and Africa : A Comparative Study of Indonesia and Ghana*, Frederick A. Praeger, Publisher, New York, 1966. p. 21. (٥٨)

H. and N. Smythe, *The New Nigerian Elite*, Stanford University Press, California, 1960, p. 165. (٥٩)

الاجتماعى وجماعات الصفوة بخاصة الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الاتجاه ، وهى فكرة تحول المجتمع التقليدى من مجتمع متجانس راكد الى مجتمع متباين - متعدد يسعى نحو تحقيق أكبر قدر من الاداء الوظيفى . ولقد انصبت آراء العلماء هنا على رصد ديناميات التغير والجماعات الفاعلة فيه ، وظروف تحقيق التكامل فى هذا البناء المتغير . ولقد انتهت هذه الآراء - فيما يتعلق بالنسق السياسى والتدرج الاجتماعى - الى نظرية للصفوة ترتبط ارتباطا وثيقا بطابع البناء المتحول وخصائصه . وسوف يتحول الاهتمام الآن الى توضيح مدى انعكاس هذه الرؤية العامة فى بحوث امبيريقية أجريت فى مجتمعات محلية ريفية .

ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى فى المجتمعات الريفية :

كما أشرت من قبل فان هذا الاتجاه يلقى انتشارا واسعا بين الباحثين المهتمين بالعالم الثالث بتأثير من سيطرة علم الاجتماع الغربى . وقد انعكس ذلك على البحوث الامبيريقية التى أجريت حول تكوينات الصفوة فى القرى . ولقد اهتمت هذه الدراسات بثلاثة موضوعات أساسية عكست النظور الذى طرأ على نوعية البحوث ومجالات الاهتمام المتفرعة عن الاتجاه الوظيفى التعددى . فقد ظهر فى البداية اهتمام بموضوعين : الأول : محاولة رصد التباين الذى يحدث فى المجتمع بعامه وفى المجتمعات الريفية بصفة خاصة ، وانعكاس هذا التباين على بناء السلطة والقوة وتكوين الصفوة فى المجتمعات الريفية ، وانفصال كل هذه الأبنية والتكوينات عن أطرها التقليدية وخاصة علاقات القرابة . والثانى : محاولة دراسة تأثير التعليم واكتساب صفات الغرب بصفة عامة (وهو مؤشر الحداثة عند انصار هذا الاتجاه) على ظهور صفوة جديدة تحاول أن تأخذ بزمام الأمور من الصفوة التقليدية . ثم تطور مجال الاهتمام بعد ذلك فانصب على دراسة علاقة البناء السياسى المحلى بالبناء السياسى القومى ، فكان الموضوع الأساسى الثالث الذى دارت حوله البحوث الامبيريقية . وتنظر معظم الدراسات هنا الى البناء السياسى على المستوى القومى على أنه يمثل قيما وممارسة سياسية حديثة ، وفى هذه الظروف فان ارتباط المجتمعات الريفية المحلية بالنطاق القومى يخلق داخل هذه المجتمعات توترا بين الصفوة الجديدة التى ترتبط بالمستوى القومى وبين الصفوة التقليدية التى تصارع هذا التغير . وتتم الإشارة فى بعض

الأحيان إلى فشل الصنوة الجديدة في إزاحة الصنوة التقليدية وذلك في المجتمعات التي تنتهج فيها الحكومات القومية سياسة تقليدية أو تستخدم الزعماء التقليديين في تحقيق التكامل الذي تنسده . وسوف أعرض فيما يلي لنماذج من هذه البحوث التي دارت حول هذه الموضوعات الأساسية الثلاثة . ولن ألتزم بالترتيب التاريخي لظهور هذه البحوث ، وإنما سرف أركز على نطاقات جغرافية ، بحيث أبدأ من بحوث أجريت خارج نطاق المجتمعات العربية ، ثم البحوث التي أجريت في المجتمعات العربية ، وأخيرا البحوث التي أجريت داخل المجتمع المصري ، وذلك داخل الموضوعات الثلاثة السالفة الذكر .

١ - الموضوع الأول : التباين والاسس الجديدة للقوة :

في مجموعة من الدراسات عن الصنوة الجديدة في افريقيا المدارية ظهر الاهتمام بتأثير التغيرات المجتمعية على ظهور أسس جديدة للمكانة تختلف عن الأسس التقليدية وذلك بناء على دخول الثقافة الغربية الى هذه المجتمعات . فقد تتبع بريستلي Priestly حالة أسرة تعيش على الساحل الغربي لافريقيا وتوصل من خلال دراسته الى أنه يمكن أن تظهر داخل النسق العشائري أسرة تكشف عن مدى اثائر بالثقافة الغربية ، حيث ظهر داخل هذه الأسرة الاتجاه نحو الملكية الفردية ، والانجاز ، والتعليم ، والنخلى عن الشكل التقليدي للانتساب للألم . ولقد ترتب على ذلك أن أصبح الكثيرون من أعضاء هذه الأسرة أعضاء في جماعة الصنوة في هذا المجتمع (٦٠) . ولقد أكدت دراسة أخرى نشرت ضمن هذه المجموعة ما توصلت اليه الدراسة السابقة من أن المكانة لم تعد ترتبط بالأوضاع التقليدية ، وإنما أصبحت ترتبط بالتعليم والثورة (٦١) . غير أن ذلك لا يعنى أن هذه الأسس الجديدة للمكانة قد حلت نهائيا محل الأسس القديمة . فلا تزال عملية التباين

M. Priestly, «The Emergence of An Elite : A Case Study of a West Coast Family» in : Lloyd (ed.) op. cit., pp 88-99.

N. Agblemagnon, «Masses and Elites in Black Africa (٦١) The Togolese Example», in Ibid., pp. 118—125.

مستمرة ، وأن شكلا من أشكال التكامل يجب أن يظهر بين الصفوات المختلفة أثناء عملية التباين . وقد تأكد ذلك من خلال دراسة ثالثة نشرت ضمن هذه المجموعة ، أكدت على وجود ثلاث صفوات في غانا تمثل منها مجموعة مختلفة من القيم . الأولى هي الصفوة التقليدية وهي تمثل الثقافة التقليدية والقيم التقليدية ، والثانية هي جماعة الانلجنسيا وتمثل الثقافة الغربية والقيم الغربية ، والثالثة هي الصفوة السياسية الجديدة التي تخلق التكامل بين هاتين الصفوتين (١٢) .

وقد انشغل بعض الباحثين المهتمين بدراسة المجتمعات العربية برصد تأثير التحديث على البناء الاجتماعي وعلى شكل التدرج الاجتماعي داخل المجتمعات الريفية . فقد اهتم عفيف طنوس Afif Tannous - على سبيل المثال - في دراسته الكلاسيكية عن قرية عربية لبنانية (١٣) ، بتحليل وتفسير تأثير بعض عوامل التغير على بناء القرية . من تلك العوامل تنوع النشاط الاقتصادي ، ودخول بعثات التبشير ، والتعليم ، وظهور الحركات الوطنية . واهتم الباحث بدراسة تأثير انشاء مصنع بالقرية على بنائها الاجتماعي بعمامة وشكل التدرج الاجتماعي بخاصة . فقبل انشاء المصنع لم يكن بالقرية أى شكل من أشكال التباين الاجتماعي ، حيث كان معظم السكان ينخرطون في اقتصاد بسيط متجانس ، ويتربطون حول علاقات قرابية ودينية . ومع تنوع النشاط الاقتصادي بعد دخول الصناعة ظهرت طبقة من الميسورين ممن يستطيعون ارسال أولادهم الى المدارس ، وتميزوا عن الفقراء الذين أخذوا في ارسال بناتهم الى العمل في المصنع . وقد أدت هذه التغيرات الى ظهور قيادة جديدة من المشرفين الموجودين بالمصنع . وأخذ عمال المصنع يلتفون حولهم بحيث يتحيت مشرف معين باسم جماعة معينة . غير أنه لم يظهر أى صراع بين القيادات القديمة من أصحاب المصنع وبين

K.E. De Graf-Johnson, «The Evolutions of Elites in (٦٢) Ghana» in Ibid., pp. 104—114.

A. Tannous, «Social Change in An Arab Village», A.S.R., (٦٣) Vol. 6, 1941, p. 650.

هذه القيادات الجديدة وذلك لأن القادة التقليديين كانوا يحتفظون باتجاهات أبوية نحو العمال ونحو المشرفين .

وقد استمر نفس الاهتمام بدراسة انتباين. واثره على المعايير الجديدة للمكانة بارزا في دراسات عديدة حتى الرقت الحاضر . منها على سبيل المثال دراسة بيتر جيسر Peter Gubser على إحدى المناطق المحيية في الأردن (٦٤) . أكد جيسر على أن التغير الذي طرأ على مجتمع مدينة الكرك قد حوله من مجتمع قبلي انقسامى الى مجتمع تظهر فيه الخطوط الطبقة بجلاء . وميز جيسر في هذا المجتمع ثلاث فئات طبقية : الطبقة العليا ونضم كبار الملاك وزعماء القبائل وتمثل ٣٪ من سكان المنطقة ، والطبقة الوسطى وتتكون من متوسطى الملاك والتجار وتمثل ٥٪ من السكان ، والطبقة الدنيا من العمال والفلاحين وتضم ٨٧٪ من السكان . وظهرت بين هذه الشرائح شريحة وسطى من المتعلمين ويمثلون ٥٪ من السكان وهم يعملون بالتدريس والوظائف العامة . ولقد ربط جيسر بين ظهور هذه الفئة وبين عملية التحديث وأكد على أهمية دورها ونموها كصفوة جديدة تعمل على نقل كل ما هو جديد الى بقية أفراد المجتمع ، كما أنها همزة الوصل بين الصفوة القومية والصفوة المحلية . غير أن الوضع الذى تحتله هذه الصفوة الجديدة لا يزال ضعيفا . حيث نجح مشايخ البدو من الصفوة التقليدية فى استقطاب الحكومة المركزية، وهو أمر دعمته سياسة الحكومة نفسها التى تعتمد على أساليب تقليدية فى الاتصال بالجماهير . وقد ترتب على ذلك أن ظلت الصفوة التقليدية مهيمنة على مصادر القوة فى المجتمع ، مع التقليل من قوة الصفوة الناشئة . وقد دعم ذلك أن الصفوة الجديدة نفسها غير مترابطة وتفتقد الى القيادة التى تخلق هذا الترابط . ولا يزال التناقض بين التقليد والتحديث قائما ومتمثلا فى هذه الصفوات المتصارعة .

Peter Gubser, *Politics and Change in Al Karak, Jordan* (٦٤).
A Study of a small Arab Town and its District, Oxford
University Press, N.Y., 1973.

ولقد امتد تأثير هذا النوع من البحوث الى المجتمع المصرى . فقد ظهرت منذ بداية الستينيات مجموعة من الدراسات تركز على تحول البناء السياسى والقيادة وبناء القوة من الاشكال التقليدية الى الاشكال الحديثة . وربما تكون دراسة عاطف غيث عن « القرية المتغيرة » (١٥) . من أول الدراسات التى اهتمت برصد هذا التحول . فالدراسة تهتم اهتماما خاصا بتباين الانساق الاجتماعية وبالدخول القوائم فيما بينها فى نفس الوقت . ورغم أن الدراسة لم تركز على البناء السياسى لمجتمع القرية الا أن بها اشارات نلى تغير للنسق السياسى والطبقى وفقا لهذا المنظور . فهناك إشارة الى انفصال السلطة عن الدوائر القرابية . فقد كانت « السلطة فى القرية تعتمد وتتعاون فى نفس الوقت مع سلطة العائلة والبدنة وبمعنى آخر فان العمدة كان يؤدي وظيفته عن طريق السلطات العائلية التى كان يمثلها كبار السن ورؤساء العائلات . . . ولكن سلطة القرية الآن نمت على حساب السلطة العائلية وبالتالي ظهر القانون بدل العرف كمنظم أول للعلاقات بين الافراد » (١٦) . وفيما يتعلق بالطبقات اشارت الدراسة الى ظهور الطبقات فى القرية بناء على ما لحق ببناءها من تغير صاحبه ظهور الفردية والمصلحة وتفكك العائلة وروابط القرابة وتفككت الملكية والاعتماد المتزايد على السوق . وأكدت الدراسة أنه بالرغم من تفكك الروابط القرابية واحلالها بالروابط القائمة على المصلحة (ومن ثم الطبقة) ، الا أن الافراد « مازالوا يقيسون بعدهم الاجتماعى عن غيرهم بمقاييس المركز القرابى » (١٧) . ويدل ذلك بطبيعة الحال على تصارع القيم التقليدية مع القيم الحديثة أثناء عملية التباين والتغير التى تمر بها .

وقد أكدت نفس هذه الفكرة دراسة لويس مليكه (١٨) حيث اظهرت أن

(١٥) محمد عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، القبطون - محافظة الدقهلية ،

الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٢٩٩ .

(١٨) لويس كامل مليكه ، الجماعات والقيادات فى قرية عربية ، مرس

الليان ، ١٩٦٣ .

الروابط العائلية لا تزال تلعب دورا هاما في تحديد نمط القيادة في المجتمع الريفي ، فضلا عن أنماط التجاذب والتنافر والاتصال والتأثير بين الناس ، وأن القيادة - رغم ارتباطها في بعض الأحيان بالمستوى الاقتصادي والتعليم - تتركز في أكبر الامراء سنا ، وأن مراكز القوة لا ترتبط بخدمة مصلحة وظيفية جماعية وإنما ترتبط بطيبة الخلق وتقديم الخدمات الفردية ، ولا تأتي الخدمات العامة الا في مرتبة ثانية . غير أن بعض الدراسات الأخرى قد اشارت الى مزيد من التباين في مصادر اكتساب القوة في المجتمع ، من ذلك مثلا دراسة محمود عودة عن القيادة في قرية مصرية (٦٩) ، والتي وإن كانت قد أكدت على البعد العائلي كأساس لبناء القوة ، الا أنها أكدت على مصادر أخرى مثل التعليم ، والمكانة الاقتصادية ، وعضوية الجماعات ، واحتلال المراكز الوظيفية . وبنفس الطريقة أكدت دراسة لعبد الباسط عبد المعطى (٧٠) على أن متغير انسن ليس له دلالة في بناء القوة ، وإنما ترتبط دلالاته بما يحيط به من متغيرات أخرى كالحيازة والحالة التعليمية ، والمهنة وما يترتب على كل ذلك من القدرة على عضوية المؤسسات في القرية أو الجمع بين عضوية أكثر من مؤسسة .

٢ - الموضوع الثاني : التعليم والصفوة الجديدة

اهتمت مجموعة من الدراسات بالربط بين زيادة الفرص التعليمية وبين ظهور الصفوة الجديدة في المجتمعات النامية . وقد ظهر هذا الاهتمام في مجموعة الدراسات التي أجريت على مجتمعات افريقيا الإدارية السابق الإشارة اليها ، حيث أكدت إحدى هذه الدراسات أن تزايد الفرص التعليمية قد أدى الى ظهور صفوة صغيرة ميزت نفسها عن بقية افراد المجتمع الذين لا يملكون خاصية التعليم ، كما أن الصفوة المتعلمة تتباين فيما بينها حسب مستوى التعليم الأمر الذي يؤدي الى أن تأخذ كل جماعة متقدمة في المستوى التعليمي وضعاً

(٦٩) محمود عودة ، « القيادة في قرية مصرية » ، رسالة ما جستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٦ .

(٧٠) عبد الباسط عبد المعطى ، « بعض ملامح بناء القوة في قرى مصرية » ، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للإحصاء والبحوث الاجتماعية ، جامعة عين شمس ،

١٩٧٧ .

صفويا أفضل من الجماعة التي تنقل عنها مستوى بحيث تظهر دورات للصفوة . بين هذه الجماعات المتعلمة (٧١) . ولقد أكدت دراسة أخرى أجريت في إثيوبيا أيضا أن السبب الأساسي خلف ظهور الصفوة الجديدة هو انتشار التعليم في المدارس والجامعات في الداخل والخارج . فقد اكتسبت هذه الصفوة - من خلال التعليم - الأفكار الحديثة والقيم والمهارات التي ميزتها عن القطاعات الأخرى من المجتمع ، وجعلها تكون اتجاها عدائيا ضد الصفوة القديمة (٧٢) .

ويركز بعض الباحثين هنا على دراسة الصفوات التي في طور التكوين Elites-in-formation ، وينصب اهتمامهم هنا على طبقة الجامعات على أنهم سرف يمثلون الصفوة الجديدة بعد تخرجهم . ومن أمثلة هذه الدراسات الدراسة التي أجريت على عينة من طلاب جامعة أحمدو بلوفى نيجيريا ، على اعتبار أن هؤلاء الطلاب يمثلون صفوة في طور التكوين (٧٣) . وقد أكدت هذه الدراسة أن التعاليم قد لعب دورا هاما في تشكيل العلاقات بين الجماعات الاجتماعية في نيجيريا ، وفي التنافس على مواقع القوة السياسية . غير أن هذا البحث قد أكد نقطة هامة مؤداها أن هذه الصفوة الجديدة تنحدر أساسا من أصول طبقية مرتفعة ، أو بالأحرى من الصفوة القائمة بالفعل ، حيث أشارت البيانات إلى أن أعداد أبناء الطبقة العليا تفوق بكثير أعداد أبناء الطبقة الدنيا في الجامعات . ويتربط على ذلك نتيجة مؤداها أنه بالرغم من التناقض القائم بين الصفوة الجديدة المتعلمة والصفوة القديمة ، إلا أن تلك الأخيرة تنحدر أساسا من الأولى ، وأن الأصول الاجتماعية - الاقتصادية

M.B. Lukhero, «The Social Characteristic of an Emergent Elite in Harare » in Lloyd (ed). op. cit. pp. 126-136. (٧١).

D.N. Levine, «Class Consciousness and Class Solidarity in the New Ethiopian Elites», in : Lloyd (ed). op. cit. pp. 312 - 325. (٧٢)

J.O' Connell and P. Beckett, «Social Characteristics of an Elite-in-Formation : The Case of Nigerian University Student», B.J.S., Vol. 26. 1975. pp. 309-336. (٧٣)

تلعب دورا أساسيا في تكوين الصفوة الجديدة ، طالما أن الميسورين فقط هم القادرون على تعليم أولادهم •

وقد امتد مجال الاهتمام هذا الى مصر خاصة بعد التوسع في التعليم الفني والجامعي • وأصبحت تفرد دراسات خاصة لرصد آثار التعليم على تغير البناء الاجتماعي ، من ذلك مثلا دراسة سالم عبد العزيز عن « التعليم والتغير الاجتماعي في القرية المصرية » (٧٤) • ولقد أكدت إحدى نتائج هذه الدراسة أن هناك تأثيرا بالغا للتعليم على تغير نمط القيادة في القرية ، الأمر الذي تبدى في حقيقتين : الأولى : زيادة عدد المتعلمين بين قادة القرية ، فكلما مالت الفرص التعليمية داخل القرية الى الازدياد كلما تحولت القيادة من الافراد التقليديين الى الافراد المتعلمين • الثانية : ارتباط الاتجاه نحو القادة بمستوى التعليم ، فكلما ارتفع المستوى التعليمي للافراد ارتفع معدل رغبتهم في قيادة متعلمة • ولقد ترك هذا الاهتمام بالتعليم آثاره على كل بحث يجرى عن الطبقات أو بناء القوة في القرية المصرية أو المجتمع بعامه • وأكتفى هنا بالإشارة الى دراسة لحسن الساعاتي عن الطبقات المبرجة والارستقراطية الجديدة في المجتمع المصري (٧٥) • والطبقة المبرجة الجديدة والطبقة الارستقراطية الجديدة تعдан بمثابة شريحتين داخل الطبقة الجديدة أو الصفوة التي ترتبت على البرامج الاشتراكية التي طبقت في مصر بطريقة عشوائية على ما يذهب الباحث ، تلك البرامج الاشتراكية التي « رفعت بعض الناس الى قمة التدرج وخسفت بعضهم الآخر الى أسفله » • وتتكون الطبقة الارستقراطية الجديدة من كبار

(٧٤) سالم عبد العزيز محمود ، التعليم والتغير الاجتماعي في القرية المصرية ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الاداب - جامعة عين شمس ، ١٩٧١ •

(٧٥) H. El-Saady, «The New Aristocratized and Bourgeoisied classes in the Egyptian Application of Socialism», in : Van Nieuwenhijze (ed.) *Commoners, Climbers and Notables : Sampler of Studies on The Social Ranking of Middle East*, Leiden, Brill, 1977, pp. 196-204.

الموظفين الذين يهيمنون على التنظيمات والمؤسسات المختلفة . أما الطبقة المبرجزة الجديدة فانها تتكون من الشباب العريض في الريف والمدينة ، ممن التحقوا بالجامعات والمعاهد العليا ، وبالوظائف العامة بعد ذلك . فالتوسع في التعليم هو السبب الرئيسي وراء ظهور هذه الفئة الجديدة ولأن هاتين الفئتين تمثلان شرائح داخل الصفوة الجديدة ، ذهب الساعاتى الى أنه لا توجد أى اشكال للصراع بينهما . فالاولى هى صاحبة النظام والثانية هى حاميته . وان كان قد اشار ايضا الى الطبقة الوسطى التى تتأخذ عناصرها من هؤلاء الصاعدين الجدد ، وتتنبى الدعوة للمبادئ الدستورية ومبادئ العدل والمساواة .

٣ - الموضوع الثالث : التعبئة السياسية والممارسة المحلية

ظهر الاهتمام بدراسة التعبئة السياسية وعلاقتها بالممارسة السياسية المحلية من واقع الاعتقاد بأن التعبئة السياسية التى تمارسها الحكومات المركزية وما يرتبط بذلك من أجهزة للتنشئة السياسية ومن تنظيمات سياسية عامل أساسى فى تحقيق التكامل القومى بين الأجزاء المتباينة للبناء الاجتماعى ، وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين الثورة التكاملية على ما أشرت من قبل . غير أن الذى شجع على نمو هذا الاتجاه فى البحث هو ظهور الحركات والثورات الوطنية فى العالم الثالث ، تلك التى ادعت تنفيذ برنامج للتنمية السياسية والاجتماعية ، التى عكست فى بعض الأحيان بعض الاتجاهات الايديولوجية . ولا شك أن المجتمعات العربية قد شهدت الكثير من هذه الحركات واشورات ، الأمر الذى أدى الى أن يرتبط هذا النوع من البحث بهذه المجتمعات أكثر من غيرها .

ومن أول الدراسات التى ظهرت حول هذا الموضوع دراسة هنرى مور Henry Moore عن قرية تونسية (٧٦) . ولقد حاول الباحث أن يوضح كيف أدت التغيرات التى أدخلها القادة الوطنيون - والمستعمرون من قبلهم - الى انفصال الممارسة السياسية فى القرية عن أطرها التقليدية وارتباطها

C.H. Moore, «Politics in a Tunisian Village», M.E.S. Vol. (٧٦) XVII, Autumn, 1963, pp. 527-540.

بالممارسة الحزبية على المستوى القومى . وقد صاحب هذا التغير ظهور صفوة جديدة متعلمة ارتبطت بحزب الدستور الجديد على المستوى القومى ، وظهر ضرب من التناغم بين قيادة القرية وبين القيادة القومية . ويتربط على ذلك أن تصبح الممارسة السياسية على مستوى القرية موجهة من السلطة المركزية التى تريد أن تحقق التكامل فى المجتمع . ويتربط على ذلك أيضا أن تكبح المعارضة بطريق شتى ، وحتى اذا ظهرت أى معارضة من بين صفوف هذه الصفوة الجديدة أو بينها وبين الصفوة التقليدية ، فإنه يتم تحييدها من خلال سياسة التوفيق Conciliation politics بين الاطراف المتصارعة . ولا يتم هذا التوفيق على أسس ديموقراطية ، وانما تلجأ فيه شخصية الفرد الذى يقوم بالتوفيق أو مكانته الحزبية أو التعليمية دورا هاما . وغالبا ما تنتهى سياسة التوفيق هذه لمصلحة الصفوة الجديدة ، ولا تجد الصفوة القديمة امامها من حل الا قبول الأمر الواقع .

ولقد تأكدت نفس النتائج تقريبا من خلال دراسة عن الممارسة السياسية فى الريف السوري مع تأكيد دور الحزب فى عملية التعبئة السياسية داخل القرية (٧٧) . اهتم الباحث فى هذه الدراسة بخضوع القرى السورية لعملية تعبئة من أعلى تستهدف نشر نظميات وافكار حزب البعث . فقد تم تدريب كوادر محلية من اهل القرى يمكن من خلالها نشر اهداف وبرامج الصفوة المركزية الى الجماهير . وقد ترتب على ذلك قيام نظام جديد للمكانة والقيادة داخل القرى ، وبدأ الفلاحون ينجذبون الى التنظيمات الجديدة التى كانت تستهدف كسر روابطهم بالقيادة التقليدية ، وكان يتم ذلك من خلال خلق نوع من التوحد - عن طريق قادة الحزب المدايين - بين الفلاحين وبين اهداف الحزب الجديدة ، واقناعهم بأن التعاون مع الحزب سوف يكون من مصلحتهم ، بل ان هذا الاقتناع يتم من خلال برامج فعلية كالاصلاح الزراعى ، وانشاء الجمعيات التعاونية . ويبدو أن الفلاحين - خاصة من صغار الملاك - قد وجدوا أيضا

R.A. Hinnebusch, «Local Politics in Syria : Organization (٧٧) and Mobilization in four Villages Cases», M.E.J., Vol. 30, No. 1. Winter, 1976, pp. 1-23.

أن الانضمام للتنظيمات الحزبية المحلية يتيح الفرصة لهم لبناء مكانة محلية،
والتمكن من أساس جديد للقوة . غير أن هذه الدراسة قد أكدت أيضا على أنه
بالرغم من خلق هذا النظام الجديد لبناء القوة في القرى السورية إلا أن القوة
التقليدية لم تختف نهائيا . فلم يؤد الإصلاح الزراعي إلى كسر سيطرة كبار
الملاك على السوق المحلية ، فضلا عن أن الجماهير لا تزال تعتمد على الصفوة
التقليدية في الكثير من أمور حياتها اليومية . وبالرغم من ذلك فقد أصبحت
سيطرة الصفوة الجديدة المشكلة من المركز حقيقة واقعة .

ولكن هناك بعض الدراسات التي تؤكد على الخطوط التي تربط بين
الصفوة المركزية والصفوة التقليدية ، حيث نجحت تلك الأخيرة في التغلب على
الصفوة الجديدة الناشئة بتشجيع من الحكومات الملكية . وقد أشرت من
قبل إلى دراسة بيتر جيسر التي أكدت وجود هذه الظاهرة في الأردن . وأشير
هنا إلى دراسة حديثة عن الصفوة الريفية في المغرب (٧٨) . فقد تبنت سلطات
الحماية في المغرب سياسة لتحديث النسق الإداري للصفوة المحلية بغرض تغيير
النسق التقليدي القديم . ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية على متوسطي
الزراعيين بمنحهم تسهيلات المكنة والسماد والبذور . وكان من المفترض
أن يصل هؤلاء - من خلال الانتخاب - إلى عضوية المجالس المنتخبة بحيث
يتم إحلالهم محل القادة والوجهاء التقليديين . غير أن هذه السياسة لم تستمر
إلى نهايتها ، ولو حدث ذلك لتكونت صفوة جديدة تغلبت على الصفوة
التقليدية . بل إن الوضع تغير كثيرا بعد الاحتلال فلم يقدر لهذه الصفوة
الجديدة أن تظهر على ما يبدو . فقد حدث صراع بين فئات عديدة ترتب
عليه بعض التحالفات ، حيث ربط أصحاب الحركة الوطنية في المدن أنفسهم
مع فقراء الريف، بينما أخذت البرجوازية الحضرية دور وريث القوة الاستعمارية .
وحاولت الطبقات الوسطى في الوظائف الحكومية أن تستغل وظائفها للسيطرة
على قطاعات أخرى في المجتمع بحيث يتم تحديثها وفق إرادتهم وهذه هي

R. Leveau, «The Rural Elite as an Element of The Social (٧٨)
Stratification in Morocco», in : Van Niewenhjze (ed.)
op. cit., pp. 268-278.

الطبقة التي حاول الفرنسيون خلقها على ما يبدو . وفي هذه الظروف تحالفت النظام الملكي مع الصفوة الريفية التقليدية ، فاستمرت تلك الأخيرة متجانسة الى حد كبير دون أى تفكك ملحوظ . ولم تنجح الطبقة الوسطى في المدن في تنفيذ سياستها بشأن كسر النفوذ السياسى والاقتصادى للصفوة المحلية ، كما لم تظهر سياسة قومية لتوزيع الأرض أو اصلاح الأراضي . ولقد دل ذلك على أن السلطة المركزية لا تريد أن تزعزع كيان هذه الصفوة التقليدية طالما أنها تستند اليها كحليف أساسى .

ولقد ظهر هذا النوع من الدراسات في المجتمع المصرى خاصة في فترة ما بعد الثورة التي شهدت تعبئة سياسية ، وانشاء تنظيمات سياسية لها امتدادات محلية ، وسوف أشير في الفصل القادم الى دراسة عن التعبئة السياسية في الريف المصرى تنتمى الى التراث النظرى الذى نعرضه فيما بعد أكثر من انتمائها الى التراث الذى نعرضه هنا . وأشير هنا الى دراسة أجريت في نهاية الخمسينات (٧٩) . واكتشف الباحث في هذه الدراسة أن الصفوة في احدى قرى الدلتا تنقسم الى شريحتين : الاولى تتوحد مع حكومة الثورة وتدافع عن برامجها وترغب في مزيد من التغيرات في مجتمع القرية ، والثانية تقاوم التغير وتقبل الوضع القائم كمصير ختمى فقط . ولقد أكد الباحث أن الجماعة الجديدة المتوحدة مع السلطة المركزية قد بدأت تحظى بأهمية بالغة ، وقد تدعم كيانها من خلال نشر التعليم . ويحاول الباحث أن يقابل بين اثنين من النظم احدهما حديث والآخر تقليدى ، مع الربط بين الجماعة الطاعية الى التغيير في القرية وبين النظم الحديثة (الثورة في هذه الحالة تفهم على أنها تعبير عن النظم الحديثة التي تدعو الى العدالة والمساواة في مقابل النظم التقليدية التي تدعو او تقوم على التسلطية) . وتحاول كل جماعة من الجماعتين المتناقضتين في القرية أن تدعو الى الافكار التي تتبناها ، غير أن الأمور تشير الى نمو قوة الجماعة الجديدة التي تدعو وتتوحد مع أفكار السلطة المركزية .

J.B. Adams, «Culture and Conflict in an Egyptian Villa- (٧٩)
ge», A.A., Vol. 59, No. 2, 1957.

وهكذا جسدت هذه الدراسات الامبيريقية في الريف الواقعي النظري للاتجاه التعددي الوظيفي والذي يقوم في أساسه على المقابلة بين العناصر الحديثة والعناصر التقليدية في البناء الاجتماعي ، وضرورة التكامل الذي يجب أن يقوم بين هذه العناصر . ولنتنقل الآن إلى رؤية مدى نجاح هذا الاتجاه في تفسير الواقع وذلك من خلال نظرة نقدية .

رابعاً : نقد الاتجاه التعددي - الوظيفي

مما لا شك فيه أن هذا الاتجاه قد قدم بعض الأفكار التي تبدو صائبة خاصة فيما يتعلق بسلوك الصفوة ونمط توزيع القوة . ولكن هذه الأفكار قد تمت صياغتها في إطار فكري زائف إلى حد بعيد . فالاتجاه الذي يؤكد فقط على عملية التباين في البناء والثقافة ، مع ربط هذا التباين بصورة مثالية للمجتمع ، يفشل في تقديم تفسير حقيقي لبعض المسائل التي يثيرها . من ذلك - على سبيل المثال - ما هي جذور عدم الاستقرار البنائي بصفة عامة والسياسي بصفة خاصة ؟ وما هي الجذور البنائية لجماعات للصفوة ؟ وما العلاقة بين بناء المجتمع ونمط القوة القائم ؟ وما الأسباب الحقيقية وراء بعض سلوك الصفوة ؟ وما هي ديناميات صراع القيم في هذه المجتمعات ؟

ولا أود هنا أن أكرر النقد الذي وجه إلى هذا الاتجاه من قبل ، وإنما أود أن أثير بعض النقاط المتعلقة بمستوى الاتساق النظري في البناء المعرفي لهذا الاتجاه ومدى صدق الامبيريقى لافتراضاته الأساسية . ومع ذلك فسوف أشير في عجلة إلى بعض نقاط النقد التي وجهت إلى هذا الاتجاه من قبل :

١ - أكد جوزيف جسفيلد Gusfield - من خلال خبرته بالمجتمع الهندي ، على نقد ما أسماه « بالنظرية الخطية في التغير » بمعنى التغير الخطي من التقليد إلى الحداثة مع النظر إلى القيم التقليدية على أنها تمثل عقبات أمام حركة التطور . ومثل هذه النظرية لا تتمتع بأي صدق امبيريقى ، ذلك

لأن قضاياها الرئيسية تظهر على أنها مغالطات عندما نواجهها بالواقع (٨٠) .
 وهذا الواقع يكشف عن أن الجانب التقليدي يمكن أن يكون له قدرة خلاقة ،
 كما أنه ذو طابع أيديولوجي ، وبه قدر من المرونة تمكنه من أن يساوق
 الحداثة . وأكد جسفيلد على وجود طبقة أو صنف وسيدة أقل اكتسابا لصفات
 الغرب ، وأكثر ارتباطا بالجانب المحلي في الممارسة السياسية .

٢ - كما نقد رينهارد بندكس Bendix الأعمال التي تقابل بين
 التقليد والحداثة من حيث أنها تقدم « رؤية ساذجة للمجتمعات التقليدية ،
 والمجتمعات الحديثة ، وكذلك للتحويل من نمط إلى آخر » . وتكمن أسباب
 هذا التبسيط أو هذه الساذجة في الخلط بين الأطر النظرية المصوغة في صورة
 أنماط مثالية وبين السياقات الفعلية للتغيير التاريخي ، فضلا عن التعميم
 الخاطئ من واقع خبرة متحيزة أيديولوجيا ، وهي خبرة التغيير في المجتمعات
 الأوروبية (٨١) .

٣ - ولقد نقد بورتس Portes اثنتين من القضايا التي توصل إليها
 أنصار هذا الاتجاه ، على الرغم من أنه عالجهما كرؤيتين مستقلتين . تتصل
 الأولى بفكرة التباين الاجتماعي ، والثانية بالتأكيد على أهمية القيم .
 فالفكرة الأولى تقدم نموذجا مجردا وتدرجيا للتغيير ، وتهمل التفاعل بين
 العوامل الداخلية والخارجية في التغيير الاجتماعي (٨٢) . أما التركيز على القيم
 فإنه يهمل الضوابط البنائية الخارجية التي تتحكم في سلوك الفرد ، ويهتم

J.R. Gusfield, «The Tradition and Modernity : Misplaced (٧)
 Polarities in the Study of Social Change», A.J.S. Vol. 72,
 No. 4. 1967, pp. 252-7

R. Bendix. «Tradition and Modernity Reconsidered» (٨١)،
 C.S.S.H Vol. 9. 1966 p. 293.

A. Portes, op. cit., pp. 64-67. (٨٢).

بقيم الاستهلاك دون القيم الحقيقية التي تؤدي الى التغيير الامر الذي ينتهي،
الى ضرب من ضروب الخيال الفارخي (٨٢) .

وتؤدي بنا هذه الاسهامات النقدية الى رفض الكثير من القضايا التي،
يعتمد عليها هذا الاتجاه . ولنا ان نسأل هذا السؤال : هل نجح هذا الاتجاه
في تعميم القضايا الوظيفية التعددية على افكار العالم النامي دون الوقوع في
تناقضات ابستمولوجية ؟ المحقق - وكما اكدت الانتقادات السابقة - أن الاطار
المعرفي الذي تمت صياغته لدراسة المجتمعات الغربية قد تم تطبيقه على
المجتمعات الأخرى كنموذج مثالي . وقد أدى ذلك بأنصار هذا الاتجاه الى بعض
التناقضات الابستمولوجية أشير الى بعض منها :

(١) من الواضح أن هناك اهتماما لدى هذا الاتجاه النظري بفكرة
التطور وفكرة الانتشار . فالمجتمعات التقليدية تتطور تطورا خطيا من خلال
نشر الثقافة العالمية . والسؤال الآن كيف يمكن لاتجاه يرتكز - في إحدى
دعائمه - على التحليل الوظيفي الذي عارض في نشأته الأولى فكرتي التطور
والانتشار ، أن يعود مرة أخرى الى هاتين الفكرتين من جديد . لا شك أن
السبب في ذلك هو اعتبار العالم الديموقراطي الغربي صورة مثالية يجب أن،
تتطور المجتمعات حتى تصل اليها . وسبيلها الى ذلك هو اكتساب ثقافة
هذا العالم الديموقراطي . ولا شك أن هذا التصور يؤدي الى اهمال الديناميات،
الداخلية للأبنية والثقافات التي تميز البلدان المتخلفة وتكسبها خصوصيتها .
والامر برمته يفرض بأنصار هذا الاتجاه الى خرق قواعد النسق المعرفي الذي
يؤمنون به . وربما يكون ذلك هو الذي دفع بارسونز في نهاية حياته أن يربط
بين صياغة النظرية وبين صورة من صور التطورية .

(ب) وهناك مصدر آخر للتناقض يأتي من التناقض بين النظرية العينية
substantive والنظرية المعيارية normative . وينبذ أن الرؤية
الثنائية لواقعين مختلفين من خلال منظور واحد أدى الى أن تتحول النظرية

التعددية الوظيفية الى نظريتين احدهما تتعامل مع المجتمعات المتقدمة (والى عرضت لها في الفصل الاول) والاخرى تتعامل مع المجتمعات المتخلفة (وهى التى عرضت لها في هذا الفصل) . الاولى عينية والثانية معيارية . نفى تصريحها عن المجتمعات الديموقراطية الغربية تبدو النظرية وكأنها نظرية عينية (بمعنى أنها مكونة من مجموعة من القضايا الامبيريقية العامة التى تؤكد علاقات سببية بين الاحداث) ، ولكن عند التحول الى دراسة المجتمعات المتخلفة تحولت هذه القضايا العينية الى قضايا معيارية . فابنية وثقافات العالم الذى يقع خارج نطاق العالم الديموقراطى توضع دائما في مقابل ابنية وثقافات هذا العالم الديموقراطى التى ينظر اليها على أنها أنماط مثالية . وبناء على ذلك ، فان رؤية ابنية وثقافات العالم الثالث لا تتم من خلال رصد واقع هذه المجتمعات وصياغة مفاهيم جديدة لوصف العمليات التاريخية التى أدت اليه وجودها بهذا الشكل ، وانما تتم من خلال مفاهيم وصياغات جاهزة .

ويذهب الفن بوسكوف Alvin Boskoff الى أن النظرية المعيارية هى تلك التى تهتم « بالتأكدات التى تصف ظروفًا لازمة لحدوث نتيجة اجتماعية مرغوب فيها » . ومن ثم فان مجال الاهتمام ينصب على النتيجة دون الميكانيزمات التى تنتج الظاهرة أو تؤخر ظهورها أو تعوقها عن الحدوث « (٨٤) . والملاحظ من خلال عرضنا لهذا الاتجاه أن نمط التفسير الذى يقمه يتطابق مع هذا التعريف للتفسير المعيارى . وذلك لأن هناك تأكيدات على ظروف معينة لا بد من حدوثها لتحقيق نتيجة اجتماعية معينة . فالمجتمعات التقليدية لا بد وان تكتسب بعض العناصر الثقافية من المجتمعات المتقدمة ، تلك التى تؤثر بدورها على المجتمعات التقليدية فتتحول باستمرار في اتجاه النموذج الغربى . وفى مثل هذا التحليل فان المهم هو النتيجة (وصول المجتمعات التقليدية الى النموذج الغربى) وليس الميكانيزمات (تاريخ هذه المجتمعات ودينامياتها الداخلية وخصوصياتها التاريخية) . وقد يذهب أنصار هذا

Alvin Boskoff, *The Mosaic of Sociological Theory*, Thomas (٨٤) Y. Crowell Company. N.Y., 1972, p. 2.

الاتجاه الى القول بأن التباين الوظيفى هو الميكانيزم الداخلى . غير أن ذلك القول مردود عليه من حيث أن التباين الذى يتحدثون عنه قد لا يؤدي بالضرورة الى التكامل ، فضلا عن أنه لا يؤدي الى التحديث . فدراسة تاريخ انتشار القيم نفسها وما ارتبط بذلك من هيمنة على المجتمعات التقليدية قد أدى الى نمط من المجتمعات يخالف تماما النمط الذى يتصورونه .

(ج) ، وتؤدي مظاهر عدم الاتساق النظرى هذه الى صعوبات عديدة فى التعامل مع بعض المسائل الخاصة أشير الى اثنتين منها :

١ - القضية التى مؤداها أن تحول القيم اثنقافية يعد مستلزما أساسيا للتغير . لقد تم اشتقاق هذا التعميم من الاطار النظرى المعيارى المشتق بدوره من الخبرة الأوروبية . ولا شك أن للقيم أهمية بالغة فى عملية التحول ، غير أن الطريقة التى عولجت بها القيم فى هذا الاتجاه تبدو غير مقبولة الى حد بعيد . فالقيم التى تم التركيز عليها هى قيم لا تؤدي الى تغير جوهري فى بناء الفرد ، وإنما تؤدي فقط الى تغير مظهرى ، بل إنها قد تؤدي الى تشويه البنية الأساسية لشخصية الافراد . وفى هذه الظروف تكون نتيجة التحديث الذى يتحدثون عنه ظهور نمط للفعل الاجتماعى لم يظهر فى أوروبا فى عصر تحولها ، وهو لن يؤدي بافراد المجتمع الى نماذج مكررة من الافراد الذين يعيشون اليوم فى مجتمعات الغرب . انه نمط خاص ، بل ان خصوصيته قد تختلف من مجتمع الى آخر .

١٢ - فيما يتعلق بدراسة الصفوة والانساق السياسية ، نجد أن أنصار هذا الاتجاه قد حاولوا فى صياغتهم النظرية عن المجتمعات الديمقراطية المتقدمة أن يتخلوا عن مفهوم الصفوة (ولقد اتضح ذلك من الفصل السابق) . ولكن عندما اتجهوا الى مجتمعات العالم الثالث دافعوا عن هذا المفهوم من جديد ، وفى هذا الصدد ظهر تحليلهم للبناء السياسى ولجماعات الصفوة وكأن هذا البناء وهذه الجماعات مفروضين على المجتمع فرضا من أجل تحقيق التكامل بين عناصر البناء الاجتماعى

المفككة أو غير المستقرة . ولم يظهر هنا أي جهد لربط البناء السياسي وجماعات الصفوة بالبناء الاجتماعي برمته وبالتركيب الطبقي . حقيقة أن جماعات الصفوة تبدو منعزلة عن الجماهير ، ولكن السؤال الجدير بالاجابة هو : ألا تأتي هذه الجماعات من بين صفوف الجماهير ؟ وبطريقة أخرى : أليست هناك ظروف تاريخية معينة هي التي فرضت هذا النوع من السلوك .